الفصل الثاني
آراء في التشريع

obeikandl.com

obeikandl.com

القرآن وثقافة العولمة خطوط عريضة:

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وحياً على نبيه ورسوله محمد ﷺ، ليكون حجة على العالمين إلى يوم الدين.

فهو كتاب عقائد وتشريعات، عقائد تحث العقل على النظر والتأمل في الكون والكائنات الحية ليصل منها إلى أن هناك خالقاً للكون والإنسان والحياة، وتشريعات لتنظيم السلوك البشري في الحياة الدنيا، وكما نظم حركة الكون ونظم سلوك الإنسان نظم استمرار الحياة، فهو ليس كتاباً للعرب أو للعجم، بل هو كتاب للإنسان، راعي غرائزه وحاجاته العضوية، فأشبعها بالطريقة اللائقة بحكم معرفة الخالق لغرائز وحاجات مخلوقاته ووسائل إشباعها.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات 12) قوله: عليه الصلاة والسلام (كلكم لآدم وآدم من تراب) فلا يوجد تشريع للأمريكي أو للأوروبي. ولا للفارسي أو الرومي.

فمن عاش في مكة المكرمة بالقرن السابع الميلادي هو إنسان، ومن يعيش في نيويورك أو موسكو هو إنسان، ومن يعيش في زمبابوي ومجاهل إفريقيا هو إنسان، فالقرآن منذ زمن البعثة خاطب العقل وأعطى حلولاً لمشاكل الإنسان بغض النظر عن عرقه وجنسه ولونه، فهو رسالة عالمية من حيث التفكير الأساسي كعقائد أو التفكير الفرعي كحلول لمشاكل الإنسان.

وحتى نبتعد عن أي سوء فهم بالمصطلحات لابد من التمييز بين العلم والعلمانية والعولمة:

العلم: هو إخضاع المادة للملاحظة والتجربة والاستنتاج، وليس لـه علاقـة في أي عقيدة من العقائد أو حضارة من الحضارات، وبإمكان كافـة الحـضارات الاسـتفادة مـن بعضها البعض في هذا المجال، وعنه تنشأ المدنية التي من المفترض أن تـؤمن للنـاس حيـاة أسهل وأمتع في الدنيا، ورضواناً من الله أكبر في الآخرة.

العلمانية Secularism: هي فصل الدين عن الحياة، وهي حل وسـط بـين النظريـة المادية والنظرية الإلهية عند الغربيين، فـ (ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، كما يقولون. وتعنـي أن الله نظم الكون ولكنه ترك تنظيم الحيـاة للبـشر، وهـم أدرى بطريقـة عيـشهم، ومنهـا انبثقت الديمقراطية التي أعطت الحاكمية للبشر في الحكم على أفعال العباد، إن خيراً فخير أو شراً فشر، فهم أدري بتصريف أمورهم وحاجاتهم.

العولمة Globalization: تعني بشكل مجمل التلقيح المستمر بين عقائد وثقافات وقـيم وطريقة عيش المجتمعات البشرية على وجه هذه البسيطة، والتطور العلمي والتقني هو الـذي يساهم في تسريع هذا التلقيح حتى يصل إلى مرحلة الاندماج، ليكون العـالم كـما قـالوا: قريـة صغيرة، وقوة تأثير أمة على الأمم والشعوب الأخرى، أو تأثرها تتناسب طرداً أو عكـساً مـع سيطرتها الفكرية والاقتصادية والعسكرية. وهذا المفهوم للعولمة هو مجال محاضرتنا.

ـ العولمة بهذا المعنى ليست بدعة ابتدعها الأمريكان والأوربيون والـروس، وكافـة الأمم المتحضرة في العصور الحديثة، عندما سيطروا كل بوقته وظرفه عـلى الفكـر والحيـاة وطريقة العيش، مع تطور علوم الفضائيات والاتصالات، بل ما خلا عصر مـن العـصور من العولمة، فالإسكندر المقدوني تلميذ أرسطو حاول أن يعولم العالم المعروف في زمنه حتى وصل إلى الهند، والرومان والفرس والهكسوس والفراعنة والفينيقيون والكنعانيون، كـل الشعوب التي حكمت مساحات في المركز وتقدمت إلى الأطراف قامت بالعولمـة سـلباً أو إيجاباً فأثرت وتأثرت وطبعت حياة الشعوب المفتوحة بمواصـفات خاصـة أو اسـتمدت من الحضارات التي أبادتها ثقافات لقحت بها ثقافتها ودعمت بها مدينتها.

ـ وكذلك المسلمون حملوا الإسـلام مـن الجزيـرة العربيـة إلى كافـة أصـقاع العـالم المعروف بعد البعثة النبوية، وصبغوا العالم بصبغة الإسلام، فعولموا العالم بالإسلام وبدون تقنية الفضائيات والاتصالات، وتعولموا عندما اصطدموا بالثقافات والحضارات الـسالفة

في البلاد المفتوحة، وسوف نحاول أن نحصر موضوع العولمة فيما يخص الثقافة القرآنية ونوضح المفاهيم الدخيلة على فحوى الخطاب القرآني وظروفها ومؤثراتها، واستغلالها لتكون على مرحلتين:

بدءاً من ظهور المعتزلة وحتى إرهاصات الثورة الصناعية في أوربا، حيث تراجع المسلمون عن أبواب فيينا عام 1693م، ومرحلة ما بعد الثورة الصناعية حتى الآن.

أولاً ـ أثر الفلسفة اليونانية على فهم النص القرآني:

لم يعرف عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه تعرض فيما روي عنه إلى تفسير معنى محدد لكل نص قرآني، لأن من نزل عليهم القرآن كانوا عرباً أقحاحاً مدركين لمدلولات ألفاظ اللغة العربية، من حيث استعمالات اللغة ونص الخطاب وفحوى الخطاب بشكل طبيعي وبدون تكلف، فكانوا يدركون ببساطة الإعرابي مدلول قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة 9)، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (التكوير 29)، ومع امتداد فتوحات المسلمين واصطدامهم بثقافات البلاد المفتوحة، برزت مسألة ما سمي بالقضاء والقدر أو الجبر والاختيار، ومعنى (الإرادة والمشيئة وحدودها) وإرادة الله وإرادة الإنسان، وخاف المعتزلة على عقائد المسلمين أن يشكك بها من قبل المتأثرين بالفلسفة اليونانية في البلاد المفتوحة فانبروا للإجابة على أسئلة المتحذلقين من رواقيين وأبيقوريين، للإجابة عن سؤال من يخلق الفعل، الله أم الإنسان، ولماذا الثواب والعقاب إذا كان الإنسان مجبراً، وإذا كان مخيراً فما هو دور الله في ذلك وشأنه، وهذا موضوع بغاية الأهمية لأنه يؤثر على سلوك المسلمين من حيث الإقدام أو الإحجام على القيام بالفعل، وما هو دور العقل في التحسين والتقبيح، من خلال فهم قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات 37) وآيات كثيرة بهذا الخصوص.

وقام أبو الحسن الأشعري ليتصدى للمعتزلة لكن مع الأسف من خلال خطئهم نفسه، وهو من يخلق الفعل الله أم الإنسان، وليس من خلال ما يجب، وهو الثواب على الفعل والعقاب عليه، وثارت مشكلة كبيرة بهذا الخصوص بين المسلمين صرفتهم عن الجهاد في سبيل الله وعن العلوم الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وذهبوا عن العمليات إلى الـ (أرأيتيات).

وكانوا يفتخرون أن هناك / 300/ عالم في أحد شوارع بغداد، ولكن أغلبهم ضاعوا فيما لا طائل منه، وتحيز المأمون للمعتزلة ضد مخالفيهم. حيث كل عالم كان يرغب في تأييد رأيه الذي وصل إليه، أو لنقيضه من الفلسفة الأبيقورية أو الرواقية، فأصبحت الفلسفة الخيالية الجدلية الأساس في فهم النص القرآني، وليس فهم الواقع وانطباق النص عليه، فضاع المسلون لفترة طويلة بين ابن عطاء المعتزلي والقاضي عبد الجبار وتلامذتهم وأبي الحسن الأشعري وتلامذته، وكل يريد أن يطوع نصوص القرآن إلى ما توصل إليه مسبقاً من خلال تأثير الفلسفة اليونانية السلبي أو الإيجابي وأوصلهم ذلك إلى التقبيح والتحسين، وما هو دور العقل والشرع وحدود كل منهما.

ثانياً ـ أثر الفلسفتين الهندية والبوذية على النص القرآني:

بعد أن اخترق فحوى الخطاب القرآني بمخلفات الفلسفة اليونانية، عن طريق تشويش مفهوم القضاء والقدر عند المسلمين، وأدى ذلك إلى وجود المتقاعسين والمتواكلين، آلت ظروف الأمة إلى عولمة النص القرآني بالفلسفتين الهندية والبوذية الوافدتين من البلاد التي فتحتها عزائم جيوش عبد الكريم ابن القاسم الثقفي، عندما فهموا القدر على طريقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قوله: (نفر من قدر الله إلى قدر الله)، أما الفلسفة الهندوسية كأم للحضارات الوثنية، وعنها تفرعت البوذية لتسود في الصين، والشنتوية لتسود في اليابان وملحقاتها، وكل هذه الحضارات تعتمد على تقديس الأرواح سواء تمثلت في إنسان أو مخلوقات حية أو حتى قوى الطبيعة، وكلها اعتمدت على تهذيب أو تعذيب الروح ليرقى الجسد في معارج الاستقامة، وليصل إلى نسخ وتناسخ أفضل أو أسوأ، لصيرورة غامضة، ولم تعولم هذه الثقافات الإسلام فقط بل انتقلت إلى النصرانية بشكل أصبح أساساً فيها، وصلة وصل بين اللاهوت والناسوت، وبين آلام السيد المسيح عليه السلام التي يتحمل بها خطايا الناس.

بناء على ما تقدم ساد عند المسلمين فلسفة تصوف جدلية تعتبر أن الإنسان مادة وروح، وإن أحدهما سيتغلب على الآخر، وضاع المسلمون في بحور فلسفة محيي الدين بن عربي والحلاج وأمثالهم عندما خلطوا الفلسفتين اليونانية والهندوسية، وبدل أن يفكروا في الوجود ليصلوا إلى الله، غاصوا في ما أسموه وحدة الوجود وأين الله وصفاته ومواصفاته.

هذه الفلسفة للروح جعلت المسلمين يعيشون حالة تخلف وانحطاط مكن القرامطة من أخذ الحجر الأسود والمغول من حرق بغداد بدون وجود مقاومة تذكر والكوارث كثيرة وأكثر من أن تحصى.

علماً أن النص القرآني كما علمنا الشارع يفهم بالعقل وبأدوات المعرفة التي تحقق مرتبة الاجتهاد، ولا يفهم بالقلب ولا بالروح ولا بحديث النفس ولا بتخرصات غلاة الصوفية، عندما يقول ابن عربي في الفتوحات (ما كتبت كلمة منه إلا وحياً عن أمر ربي) وقوله المأثور (حدثني قلبي عن ربي...). فخلطوا بين الروح والنفس والعقل والقلب وضاعوا بين الحقيقة والوهم والواقع والتصور والتخيل.

ثالثاً ـ أثر الفلسفة الزردشتية:

إن موطن الفلسفة الزردشتية كان في بلاد فارس، وهذه الفلسفة تعطي حكام تلك البلاد الحق الإلهي بالحكم والسلطان، وعلى هذا الأساس (كان القانون عندهم مستمداً من الإرادة الإلهية، وكان كل خروج على هذا يعد خروجاً على إرادة الإله...)، ولقد سرت هذه الروح أحياناً بسوء أو حسن نية في الثقافة القرآنية، عندما برز أهل الغلو في أوساط الشيعة، مثل بيان بن سمعان التميمي، والمغيرة بن سعيد وبشار الشعيري وأبي الخطاب، حيث زعموا حق الألوهية لأئمة أهل البيت رضوان الله عليهم[1].

واستطاعوا اختراق فحوى خطاب القرآن من تكريم النصوص لأهل البيت وتزكيتهم وتطهيرهم، إلى إعطائهم صفات الألوهية في الحد الأعلى أو عصمتهم في الحد الأدنى، كما أن نشوء نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت أوقعت الأمة الإسلامية في شقاق وفتن لن يستفيد منها إلا الحاقدون على الإسلام عندما طعنوا بكبار الصحابة الذين نقلوا لنا هذا الدين، وهذا مناقض لثقافة آل البيت رضوان الله عليهم وتاريخ أئمة الشيعة الأوائل الذين كانوا يكنون كل الاحترام والتقدير للصحابة رضوان الله عليهم.

لقد حاولت أن أسلط الضوء على أهم الفواصل في تاريخ الأمة الإسلامية التي استطاعت من خلال تجيير فهم نصوص القرآن لصالح مفاهيم ليس لها علاقة لا من

(1) كتاب السنة والشيعة وحدة الدين/ أحمد الكاتب.

قريب ولا من بعيد بآيات الله سبحانه وتعالى، عن التأويل الذي اعتمد التشابه في آيات الله سبحانه وتعالى ليكون سبيلاً إلى انحطاط المسلمين وتمزيقهم.

رابعاً ـ عولمة ما بعد الثورة الصناعية:

ـ محمد علي باشا وعولمة القرآن بالثقافة الفرنسية: بدأ الغزو الثقافي المباشر الأوروبي إلى بلاد المسلمين في نهايات القرن الثامن عشر، ومع تسلط أسرة محمد علي باشا على الحكم في مصر بدعم من الفرنسيين، حاصر نابليون القاهرة ودخل مصر عام 1798م، بدون مقاومة جديرة بفسطاط المسلمين، فهو لم يكن يتصور أن المعركة ستكون مع البريطانيين فقط، بل كان يخشى أن ينفر المسلمون خفافاً وثقالاً للجهاد في سبيل الله، لكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك، وعندما لم يجد مقاومة، سأل أين جيوش المسلمين؟، فقيل له: إن العلماء والناس مجتمعون في الأزهر يتلون صحيح البخاري ويدعون بالنصر، فقال وهل البخاري جنرال فقالوا: لا إن البخاري كاتب، وعندها أمر بإدخال المطبعة الأولى إلى مصر، ليطبع بها صحيح البخاري، لأنه يعلم أن الدعاء لا يحقق نتائج لوحده، وأن صحيح البخاري ليس له تأثير في الحياة الدنيا طالما لا يؤثرعلى سلوك المسلم ويدفع المسلمين للذب عن دينهم وأرضهم وعرضهم.

ـ تبنت أسرة محمد علي الثقافة الفرنسية طريقاً للحضارة والتقدم لمنافسة الغرب كما زعم المروجون، وبدأت البعثات العلمية تصل إلى فرنسا برئاسة شيوخ أزهريين، بدأ بالشيخ رفاعة الطهطاوي.

وبعد أن خرجت الجيوش الفرنسية من مصر بخسارة نابليون أمام الجنرال البريطاني (نلسون) بدأ الغزو الثقافي البريطاني مصحوباً بالغزو العسكري على أثر فشل ثورة (عرابي باشا) وبدأ مجلس الأميرة (نازله) زوجة الملك أحمد فؤاد، ليكون بؤرة تجمع من يسمونهم المفكرون والأدباء والشعراء، وبإشراف اللورد (كرومر) حاكم مصر الحقيقي، وبدأ التجرؤ على ثقافة القرآن الكريم بالهجوم على نصوصه مباشرة، وتحت مظلة التطوير والتحديث للإسلام بحجة مواكبته لعصر التنوير في أوربا، وتحت ستار العلوم الغربية التي أنهضت الغربيين، ليساهم الجميع بحسن أو بسوء نية في تحريف معاني القرآن لتناسب كل زمان ومكان، باعتبار القرآن تشريعاً خالداً لا يمكن أن يكون عاملاً من عوامل التأخير

والانحطاط في الأمة،وهي كلمة حق أريد بها باطل، وبدأت مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، تستنسخ علوم الغربيين بحجة إنهاض المسلمين، وفي الحقيقة كان الهدف الأساسي منها هو تغيير معاني القرآن تحت وطأة الثقافة الغربية وخاصة المدارس الماسونية التي تربى بها جمال الدين الأفغاني ومن ثم تلميذه المسمى (الأستاذ) محمد عبده، حيث اعتبرهم المسلمون رواد النهضة لكنهم في الحقيقة كانوا من رواد حملة التغريب التي استهدفت معاني القرآن مباشرة لتخدم أفكار (ديكارت وورينان) وأمثالهم[1].

ولقد كانت هذه المرحلة هي المرحلة التأسيسية للمدارس التي قامت بنقد ما سمي بالعقل الديني ونقد ما سمي بالعقل العربي التي اعتمدت الواقع مصدراً للتفكير، وهمشت القرآن الكريم، أمثال د. نصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وعابد الجابري وغيرهم من المضبوعين بالثقافة الغربية، وهيأت هذه المدارس الثقافية إلى الإجهاز على القرآن كنصوص تشريعية قابلة للتطبيق على الإنسان، لتحل كافة مشاكله السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولما كان ليس من الحكمة على أي مفكر مارق في العالم الإسلامي إنكار القرآن مباشرة، فكان لا بد من إدخال الشك في أنه مصدر تشريعي خالد، ولهذا عملت هذه المدارس على تغيير معاني القرآن لتناسب العقيدة الرأسمالية وهي فصل الدين عن الحياة والعقيدة الماركسية بنظريتيها المادية الديالكتيكية والتاريخية، وبعد فشل النظرية الماركسية وانهيار منظومتها وكياناتها الفكرية والعقائدية والسياسية، وانفراد الرأسمالية وربيبتها الديمقراطية في العالم، قامت الدراسات الاستشراقية والغربية لتؤثر على التيارات المحلية دينية أو قومية تحت اسم التحديث والتجديد ومواكبة العصر، بالقبول بالبراغماتية الأمريكية والأوربية، وأنه لابد من تطوير معاني القرآن لتناسب كل زمان ومكان، ولقد تجلى بشكل واقع في كتاب (الكتاب والقرآن) قراءة معاصرة والذي استطاع فيه مؤلفه أن يستفيد من كل الكتابات السابقة التي تناثرت في المقولات التي عملت على عولمة القرآن منذ الفلسفة اليونانية والهندوسية والماركسية والرأسمالية، مستعيناً بفساد علوم المنطق والاجتماع، واستغلال بعض القواعد المتصلة بالشريعة، مثل (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان ـ و الضرورات تبيح المحظورات

(1) العلمانيون والقرآن الكريم/ د. أحمد الطحان.

ـ وجلب المصالح ودرء المفاسد ـ والعرف ـ والعادة محكمة ـ وسد الذرائع ـ ودفع الحرج) كل هذه المسميات قواعد شرعية وضعها في غير سياقها لتكون أبواباً لعولمة القرآن في القرن العشرين، من خلال إقراره بالنبوءات وإنكاره للتشريع، وإبقاء القرآن نصاً إلهياً معصوماً في المغيبات، وقابلاً للتزوير والتحريف في التشريعات، واعتبر السنة النبوية تفاعلاً تاريخياً تتغير وتتبدل حسب الحاجات لأنها مفاهيم بشرية وليست وحياً إلهياً. وابتدع نظرية (الحنف) التي أقامها على أن من كمال القرآن في التشريع أن تحنف (تميل) عن الاستقامة عندما يكون ذلك يلبي حاجات المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية حسب العصر والزمان والمكان.

ـ لقد غدا القرآن مادة تدرس على طريقة مذهب (ديكارت) في الشك عند من أسموه عميد الأدب العربي ظلماً وعدواناً د. طه حسين وسلامة موسى ومشايعيهم من تلامذة الاستشراق، وجاراهم الشيخ الأزهري علي عبد الرازق، في كتابه الإسلام وأصول الحكم، عندما أنكر أن القرآن أرسى أي أصول للحكم متجاوزاً فهم المسلمين خلال اثني عشر قرناً ومنذ البعثة النبوية.

إن معلم الجميع في العولمة كان ابن رشد في فلسفته اليونانية، المنقولة عن معلمه الأكبر (أرسطو) عندما انبهر به انبهار بعض المعاصرين اليوم بالفكر الغربي، وسمي (الشارح) وعرف في الغرب بهذا اللقب[1]، ويذكر أرنست ريناي في كتابه (ابن رشد والرشدية)، أن ابن رشد كان يفضل أرسطو على الأنبياء عليهم السلام، وعدَّه أكمل البشر حين قال: (نحمده حمداً لا حد له، ذاك الذي اختار هذا الرجل ـ أرسطو ـ للكمال، فوضعه في أعلى درجات الفضل البشري التي لم يستطع أن يبلغها أي رجل في أي عصر كان)[2].

ولقد ترجمت كتب (الشارح) ابن رشد إلى اللغات الأوربية، وتأثر بها فرنسيس بيكون (1561 ـ 1626). ـ بقوله: الأديان طريق الوحي، والعلم طريق العقل ـ كما سار على منواله غاليلو (1564 ـ 1642) عندما قال: (غاية الروح المقدس أن يعلمنا كيف نذهب إلى السماء، لا كيف تسير السموات...).

---

(1) النزعة العقلية عند ابن رشد/ عارف العرفي.

(2) العلمانيون والقرآن الكريم/ د. أحمد إدريس الطحان.

ومن هنا لا نستغرب القيمة الكبيرة والمشبوهة التي يعطيها الغرب لابن رشد والمدرسة الرشدية، باعتباره ساهم في النهضة الأوربية، لأنهم يعرفون أن ابن رشد نقل الفلسفة اليونانية التي ولدت الفلسفة البروتستانتية التي ساهمت في تحجيم الكاثوليكية، عندما سموا مدرسة ابن رشد المدرسة العقلانية، والحقيقة أن ابن رشد أعاد تصنيع وإنتاج الثقافة اليونانية، حيث عولم الإسلام بالثقافة اليونانية التي نقلها إلى الغرب، ولم ينقل لهم الثقافة القرآنية، وبذلك تكون بضاعتهم ردت إليهم، وابن رشد كان مفكراً (أرسطولياً يونانياً) ولم يكن مفكراً إسلامياً ولنفس السبب وحتى الآن مازال الغرب وخاصة في فرنسا يحتفل بولادة وثقافة ابن عربي وجلال الدين الرومي.

ـ وهذه المدارس المعولمة لثقافة القرآن الكريم هي التي وضعت الأسس لتلقيح الإسلام بأحكام اقتصادية ليست من الإسلام تحت غطاء نصوص قرآنية، فأحلوا المصارف الربوية وقبلوا اقتصاد السوق، وسيطرت الشركات متعددة الجنسيات على مقاليد الثروات في العالم الإسلامي، وتحت ستار حقوق الإنسان وحقوق المرأة، طوعوا النصوص القرآنية لتكون حدود الحجاب حسب كل زمان ومكان وسلطان، وتقمصوا شخصية الغرب في جعل المرأة سلعة تباع وتشرى تحت مسمى الحريات الشخصية، وخلطوا بين مصطلحات الإسلام والإيمان وضاعوا بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي، ليصلوا من حقيقة كون منبع الأديان السماوية الوحي، أن كافة معتنقيها مؤمنين ومسلمين، فأدخلوهم الجنة على مسؤوليتهم، لأن الجميع حققوا التقوى الاجتماعية (بالفرقان العام)، حتى أصبح غير حضاري أن تقول لغير المسلم أنه كافر، متناسين المئات من آيات القرآن الكريم التي تحدد مواصفات المسلم ومواصفات الكافر وحقوق كل منهم الإنسانية التي منحها الله سبحانه وتعالى.

وأصبحت مفاهيم وواقع العولمة في بلاد المسلمين، تعني تقمص شخصية الأمم المتقدمة وأخذ طريقة عيشهم وقيمهم لتكون أسباباً لنهوض المسلمين، فأصبح تعلم اللغات غير العربية ليس لتأمن شرهم، بل لتسير خلفهم، وعطلوا أحكام الجهاد من خلال آيات القرآن عندما عولموها، فضيعوا الناس بين القتال والجهاد والإرهاب وحمل الدعوة، حيث التبست عليهم أحكام الجهاد مع أحكام أهل البغي والحرابة، ومتى تكون الحرب دفاعية أو هجومية، ولم يدركوا بأن القتال والحروب سنة بشرية لا يمكن فصلها عن غريزة حب البقاء

التي من مظاهرها حب السيادة، وأن كل فترة سلم هي استراحة بين حربين، فالغرب يستعد بمختلف صنوف الأسلحة، ويطلب من المسلمين أن يفهموا آيات القرآن على ضوء السلم والمسالمة والموادعة، ليتمكن من السيطرة الثقافية والسياسية والعسكرية على المسلمين. وباختصار على المسلمين أن يعودوا إلى فهم القرآن كهيأته يوم نزوله لا تحريف ولا تلفيق، ولا مداراة ولا مسايرة ولا مداهنة، من خلال سنة رسول الله ﷺ، والتي هي بمثابة (الكتالوج) الشارح لأي جهاز جديد بالطريقة الاجتهادية الصحيحة، والتي تعني دراسة الواقع ثم دراسة ما ينطبق على هذا الواقع من كتاب الله وسنة رسوله من قبل الحائز على شروط الاجتهاد، ليعطي الرأي السليم في الواقعة بغض النظر عن غضب الناس أو رضاهم أو ناسب حاجات المجتمع المتصورة أم لا، لأن القرآن مصدر التشريع وليس الواقع، والنهضة تغييراً للواقع السيئ ليكون واقعاً جيداً من خلال نصوص الوحي، وليس تغيير نصوص الوحي لتلائم الواقع السيئ، وإلا انعدمت النهضات في العالم.

وأخيراً أحب أن أضيف بأنه مع الأسف لم يستطع المسلمون أن يستفيدوا حتى الآن من وسائل المعلوماتية والاتصالات التي تمكن صاحب القوة والنفوذ والسلطان والعقيدة، من التأثير على الناس والشعوب وجعلهم يتعولمون من خلال الإسلام في قيمهم وطريقة عيشهم، ولكن مع الأسف، الضعيف لا يستطيع أن يعولم ولا يتمتع بالهيبة والقدر والرهبة والرجاء التي تجعل الناس يتأسون به، وطالما أن البورصات العالمية والحياة التجارية والإجراءات المصرفية تتوقف يوم السبت والأحد، فإن الغرب يعولمنا ومتى اضطر الغرب والعالم إلى أن يعطل يوم الجمعة فمعناه أنه بحاجة لنا، وما لم يحدث ذلك ستكون العولمة دائماً سلبية ولن نستفيد من إيجابياتها في الحقيقة والواقع.

طرابلس الغرب ـ مؤتمر الثقافة القرآنية عام 2008م

والله المستعان

دمشق 3/ 9/ 2008

تعقيباً على الأستاذ ياسين الحاج صالح ـ لا للعلمانية:

إشارة إلى ما نشر في صحيفتكم الحياة بتاريخ 18/ 8/ 2007 العدد رقم / 16206/ بقلم الكاتب السوري الأستاذ وائل السواح تحت عنوان (تعقيباً على ياسين الحاج صالح ـ معارضون وسلطويون في سورية: لا للعلمانية) وإيضاحاً لما أراه حقيقة موضوعية ليس لها علاقة بآراء ودوافع أطراف الحوار أعقب بما يلي:

ـ لم أجد مبرراً لهذه الحملة الشعواء التي شنها الأستاذ السواح على الأستاذ الحاج صالح والدكتور عرسان والدكتور دخل الله، سوى تحمسه للعلمانية كفكر نظري سيطر على من أسموهم مثقفين، سواء في الغرب أو الشرق لفترة طويلة، وكأنه أصيب بخيبة أمل عندما لمس أن الفكر العلماني المستورد من واقع ليس له علاقة بواقع أمتنا يسير في طريق الاضمحلال والزوال، لأن هذا الفكر ليس موجوداً في حياة الشعوب ولا يستطيع أن يكون المحرك والدافع للأمم عندما تحل بها الكوارث والنكبات.

ـ يخطئ من يظن أن العلمانية كما هي عند فلاسفتها الأوربيين قامت على نكران أن للكون والإنسان والحياة خالقاً أوجدها من عدم، فهي تؤمن بوجود خالق وراء الطبيعة ولكن هذا الموجد نظم الكون في أحسن حال، لكنه لم ينظم العلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، وترك حل هذه المشاكل للعقل البشري حسب الزمان والمكان.

ـ بعد صراع مرير ومذابح يندى لها الجبين بين مؤيدي الحركة (اللوثرية) وبين الكنيسة الكاثوليكية المدعمة بأباطرة وملوك أوربا بدأ من منتصف القرن الخامس عشر، وبعد الفرز المذهبي على إثر الثورة الفرنسية عام 1789 استقرت أحوال أوربا بأن أصبحت الكلمة العليا للبروتستانت في بريطانيا وألمانيا وحلفائهم، واستقر المذهب الكاثوليكي في فرنسا وإيطاليا وحلفائهم.

ـ توصل فلاسفة أوربا ومنظروها إلى الفصل بين الدين والحياة، حسب المقولة المنسوبة للإنجيل المقدس (أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وتم الحجر على بابا الكاثوليك في حي من أحياء روما أسموه (دولة الفاتيكان)، ونهضت أوربا نهضتها العلمية التي ما تزال آثارها تسيطر على الفكر العالمي حتى الآن، بشعاراتها النظرية (حرية، عدالة، مساواة) للجميع أمام

القانون بغض النظر عن أديانهم وعقائدهم ومذاهبهم، ولتكون المواطنة هي الأساس في هذه الدول، وطبعاً انتقل هذا الفكر إلى العالم الجديد في الأمريكتين بعد اكتشافهما عام 1492، وتقنن في الدستور الأمريكي الذي وضعه جورج واشنطن وأساتذته الرأسماليون بعد تأسيس الولايات المتحدة واستقلالها عن البريطانيين والفرنسيين والأسبان والبرتغاليين. وزاد على ذلك أن الثورة البلشفية عام 1917 رفضت الاعتراف بالأديان واعتبرتها أفيون الشعوب وأنكرت بنظريتيها المادية الديالكتيكية والتاريخية وجود خالق للكون والإنسان والحياة، ونسفت الحل الوسط الذي اعتمدته الشعوب الأوروبية.

والسؤال المطروح الآن هل العلمانية كانت فكراً فلسفياً نظرياً، أم واقعاً حقيقياً تمثله الناس في حياتهم وطبقوه كمبادئ عملية في مجتمعاتهم.

للإجابة على هذا السؤال لا أريد أن أدخل بالفلسفة الخيالية والسفسطائية، بل أريد أن أعالج الموضوع حسب الواقع العملي الذي مارسته هذه الشعوب من خلال الحقائق التي لا يمكن التنازع حولها نظراً لثبوتها واقعاً وسلوكاً. وسوف أكتفي بأمثلة بسيطة قريبة العهد ولكنها هامة ابتداءً من حركة (تضامن) التي قادها رئيس نقابات العمال في بولندا السيد (فاليسا) وحتى الآن.

ـ قادت الكنيسة الحركة العمالية في بولندا ضد حلف وارسو عندما انتخب لأول مرة بابا في الفاتيكان من (بولندا الشيوعية) واستطاعت هذه الحركة جمع الملايين للقيام بعصيان مدني ضد الحكام الشيوعيين في بولندا، وهذا كان البداية لهدم سور برلين عام 1989، وإلى توحيد الألمانيين (غربية وشرقية) الذي أعقبه انهيار الاتحاد السوفييتي الماركسي، وخرجت الصلبان الأرثوذكسية مقتلعة أصنام لينين أينما كانت، ومكتفية بترك قبر (لينين) كمتحف سياحي، تستفيد منه الدولة لدعم ثروتها القومية. ولم يصل يلتسين أوبوتين إلى السلطة إلا بعد تعميدهما في الكنيسة الأرثوذكسية العظمى في موسكو تحت الصلبان الضخمة التي حملها البطاركة وبمباركتهم.

ـ تفكك الاتحاد السوفييتي، هذه الدولة العظمى، وعاد كل إلى ما يعتقد، عندما أنزل جورباتشوف عصاه ووقُصت أجنحة الاتحاد السوفييتي، وعادت الجمهوريات الإسلامية إلى دينها الإسلامي كشعوب، ولم يبقَ حكام هذه الجمهوريات إلا بفضل الدعم العسكري الروسي المباشر لهم في السلطة.

ـ تفككت يوغوسلافيا، هذه الدولة التي صنعها النظام العالمي بقيادة (تيتو على إثر الحرب العالمية الثانية) وأصبحت دويلات على أساس ديني (صربيا) ومن والاها للأرثوذكس و(كرواتيا) للكاثوليك و(البوسنة) للمسلمين، وقامت بينهم المذابح البشعة على أساس ديني، وكأن هذه الشعوب لم تدرس لا أفكار ماركس ولا أفكار (سبينوزا) حتى ولا أفكار (هوبز) وطريقته الأخلاقية في التعامل الإنساني. فكانت مذابح يندى لها الجبين على أساس مذهبي ديني، قتلت الأطفال واغتصبت النساء حتى ولو كانوا تحت علم الأمم المتحدة، وكان قادة المذابح (دكاترة وبروفسورات) في مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية والقانونية والاجتماعية.

ـ أما المملكة المتحدة فحدث ولا حرج عن مذابح الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا في القرن العشرين، ويكفي المشاهد اشمئزازاً عندما يرى مسيرة (الأورانج) في كل سنة يتقدمها العلماء والمفكرون السياسيون من البروتستانت ليذكروا الكاثوليك بالنصر الذي حققه البروتستانت عليهم وبالمذابح التي أوقعوها بهم. واختار الإنجليز رئيس وزراء جديد لهم بعد السيد بلير ابن القس السيد براون، وأذكر القارئ بأن الاسم الرسمي لملك بريطانيا، هو ملك بريطانيا وايرلندا واسكتلندا وويلز والكومنولث وحامي الكنيسة (الانجليكانية) فأين العلمانية؟.

ـ وطلّت علينا الولايات المتحدة في عهد بوش الثاني، بما ينافي كل قواعد العلمانية، حيث هذا الرئيس تأتيه إلهامات، ويأتيه وحي من السماء، ليدفعه باتجاه الأعمال السياسية والعسكرية من أجل سيطرة قيم الكنيسة الإنجيلية على كل قيم العالم. فلقد أعلن حروباً صليبية لا تتوقف حتى تسيطر إلهاماته على العالم وليدحر الشر، المتمثل بالمسلمين، ويسيطر الخير المتمثل في البروتستانتية الإنجيلية، التي أوصلته إلى الحكم، بفضل أتباعها البالغ عددهم حسب إحصاءات رسمية / 50/ مليون مواطن يتبعون هذه الكنيسة المدعمة بمئات الإذاعات المرئية والمسموعة وبقيادة قُسس فتحت لهم خزائن أصحاب القرار السياسي والاقتصادي في الولايات المتحدة. وسيطر المحافظون الجدد (الإنجيليون) على القرار السياسي في البيت الأبيض حتى أن رئيس الحزب الجمهوري الحاكم صرح علناً بأن إسرائيل دولة وجدت بقرار من الله سبحانه وتعالى، وإن الإنجيليين

ينتظرون معركة (هرمجيدون) التي ينتصر فيها الخير على الشر، وينزل المسيح عليه السلام من السماء العليا ليدحر الشر.

ـ أين العلمانية التي يدعيها العالم الغربي ومن ورائه الأمم المتحدة، عندما ساعدت وأيدت وشرعت قيام دولة أسموها (إسرائيل)، على أرض يقطنها شعب، هو جزء من العالم العربي والإسلامي، باسم الدين اليهودي، وباسم إرث بني إسرائيل، فذبحوا أهلها لا لسبب إلا لأنهم يدينون بدين غير اليهودية لتكون دولة إسرائيل بعرق نقي وحيد هو عرق بني إسرائيل.

ـ أما منطقتنا منطقة الشرق الأوسط الكبير أو الجديد، فأين العلمانية التي علمتنا إياها مناهجنا الدراسية ومفكرونا القوميون والوطنيون.

هل أبدأ من لبنان البلد الذي كان يعتبر نافذة العلمانية الغربية على الشرق الأوسط، فبعد أكثر من ثلاثين سنة من الحروب المذهبية والطائفية، وللأسف بقيادة أساتذة في العلمانية أغلبهم يحملون درجات الدكتوراه الحقيقية أو الفخرية، سواء أكانوا مسلمين أو مسيحيين، خضعوا لإرادات طوائفهم ويسيرون بطريقة (الكونتونات) الدينية بل المذهبية، فالمسيحيون تحزبوا سياسياً بانحيازهم إلى مذاهبهم، كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس وأرمن، والمسلمون كل عاد إلى مرجعيته السنية أو الشيعية بغض النظر عن الصواب والخطأ، وعما تعلموه في مدرسة العلمانية، والدروز التفوا حول قياداتهم الجنبلاطية أو الأرسلانية، إنه نموذج فسيفسائي مخجل قضى بشكل واضح على كل ما تعلمه شعب لبنان على أساس العلمانية، ليثبت أنها أكاذيب في الكتب وليست حقائق على الأرض.

ـ أما العراق فحدث ولا حرج عن انهيار العلمانية، وثبوت بطلانها بعد أن حكمها حزب البعث لمدة أربعين سنة، حيث عاد الناس إلى الانتماء المذهبي بل إلى عشائرهم وقبائلهم، فأين العلمانية عندما تجد كل يوم في شوارع بغداد أكثر من / 50/ جثة تذبح على الهوية لا لسبب إلا لأنها تنتمي إلى مذهب ديني ربما لا تفهمه ولا تعلم عنه الكثير. سوى إدراكها أن الانتماء الطائفي والمذهبي والديني والقبلي أصبح أمراً ضرورياً لها حتى لا تباد بشكل جماعي، وإن قتلت بشكل إفرادي.

إن ما ذكرت غيض من فيض لأستدل به على خطأ قاتل يعتمد عليه مفكرونا وهو، إن العلمانية هي التي أنهضت أوربا، ولأدلل عن أن هناك فرقاً بين العلمانية والعلم، وأن

الذي أنهض أوربا وتابعتها أمريكا هو الطريقة العلمية في التفكير، أي دراسة الواقع عن طريق (الملاحظة والتجربة والاستنتاج) هذه هي الطريقة التي أوصلت العالم الغربي ليكون سيد العالم في الوقت الحاضر، حيث سلك الطريقة التجريبية والتحليلية في دراسة الواقع، فوصل إلى ما هو عليه من علوم أدت إلى سيطرته على مرافق الدنيا، عندما أطلق الحكام مواهب الشعوب للبحث بالمادة بعمق واستنارة للوصول إلى تطويعها بموجب القوانين التي خلقها الله عليها، فتوصلوا إلى فهم القوانين التي تسير حركة المادة واكتشفوها وأبدعوا بها، فوصلوا إلى نهضة مادية مكنتهم من قيادة العالم،ولكنهم لم يصلوا إلى نهضة فكرية ومعنوية روحية، لأنهم لم يربطوا القوانين المكتشفة بمن هو نظم هذه القوانين وهو الله سبحانه وتعالى.

والذي يؤكد على وجهة نظري أن اليابان قد وصلت إلى أرقى العلوم وأسهلها وأفضلها وأرخصها بدون العلمانية المزعومة، بل وصلت بالطريقة العلمية التي مارسها المواطن، علماً أنه لا أثر للدين في علاقات الشعب الياباني وإن كان عندهم تقاليد موروثة وآداب اجتماعية.

إن العلمانية كما وصفها مفكروها في الغرب لا أثر حقيقي لها على حياة المواطن عندهم، فهي لازمة فقط لمؤسساتهم بالقدر التي تمكن الدولة المملوكة لأهل الفعاليات الاقتصادية (الرأسماليون) من المحافظة على القيم الرأسمالية التي تمكن أصحاب الفعاليات الاقتصادية من السيطرة على مرافق البلاد داخلياً والعالم خارجياً، ولهذا تنتهك الدولة عندهم حقوق الإنسان بمجرد أن يخالف قيم الرأسمالية بغض النظر عن العلمانية التي قالها المفكرون الأسبقون. فتعلن حالة الطوارئ وتنتهك كرامات الناس وحتى تمنع امرأة مسلمة من الحجاب في فرنسا لمخالفتها لقيم المجتمع، باعتبار ممارستها لفكر غير حضاري بموجب قيمهم.

ـ إن الواقع العملي يثبت بأن العلمانية أكذوبة كبرى، ربما أسسها مفكرون مخلصون مقتنعون بها، لكن الواقع الفعلي أثبت استحالة وجودها حقيقة في حياة الشعوب، فتم في بلاد العرب والمسلمين الخلط بين العلمانية والعلم، حيث ثبت أن العلمانية نظرية خيالية لا تثبت أمام الواقع، وعند أي ظروف استثنائية يعود الناس جميعهم إلى عقائدهم، فالعقائد

تختلف فيها الناس، وهذا حقهم في الإقرار أو الإنكار، والاختلاف في العقائد ليس موجباً للكره والبغضاء، بل لكلٍّ قيمه وموازينه، فالاختلاف رحمة وحضارة، والكره والبغض عداء، والعلم مشاع للجميع وهو مجموعة القواعد والقوانين التي تخدم الفكر الصحيح ليكون على أساسه النهضة الصحيحة التي تملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة، وهذا ما يفتقده الغرب، ومن سار على حذوه، فقد امتلكوا الارتفاع المادي ولكنهم لم يمتلكوا الارتفاع الفكري الذي يؤدي بهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ـ أختم مقالي بالتساؤل أين العلمانية، عندما يجري توزيع الأسلحة النووية في العالم على أساس ديني فعلي، فنجد ما أسماه المراقبون السياسيون القنبلة البروتستانتية للولايات المتحدة وبريطانيا، والقنبلة الكاثوليكية لفرنسا والكونفوشوسية للصين وكوريا الشمالية والبراهمية للهند والسنية للباكستان، والآن ننتظر القنبلة الشيعية، إنه عالم غريب يتحدث باليسار ويكتب باليمين أو العكس، ولله الحمد أن فلاسفة العلمانية المؤسسين ليسوا على قيد الحياة، وإلا لماتوا حزناً وألماً على نظرياتهم التي دحضها الواقع الفطري الإنساني.

وأذكر تعليق ماركسي عتيق بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، حين قال: (لا تصدقوا بعد العلمانيين، فلقد ثبت لي بأن العالم منذ الخليقة بحالة صراع بين أتباع موسى وعيسى ومحمد والكونفوشيسية والبراهيمية وخلاف ذلك تصور خلاف الواقع).

لعل ما ذكرت أعلاه يزيل الالتباس الحاصل عند الأستاذ السواح في موقف الأساتذة الحاج صالح وعرسان ودخل الله وأمثالهم، عندما فرقوا بين العلم والعلمانية، وأن العلمانية لم تصمد أمام فطرة الشعوب المتدينة سواء في الشرق أو الغرب، وأن التضحية مربوطة بالعقيدة وأن العرب شعب يربط سلوكه بالحياة الدنيا بما بعدها، وهو اليوم الآخر. فهؤلاء الأساتذة وأمثالهم غلب إخلاصهم وولاؤهم على سيرة حياتهم وثقافتهم، عندنا توصلوا إلى أن العلمانية لا تستطيع أن تكون المحرك الأساسي للشعوب والأمم لتحقيق أهدافها في السيادة والريادة والوحدة والعزة، وليكون لها مكان مؤثر في النظام العالمي الجديد.

2007/8/02

لماذا هذا الغلاء:

موجة ارتفاع الأسعار حدث عالمي وليس محلياً فقط، حتى أن ابناً لي في المرحلة الثانوية سألني لماذا هذا الغلاء في الأسعار؟ فكرت قليلاً قبل أن أجيبه لأني خشيت أن لا أتمكن من إيصال الفكرة إليه نظراً لفرق السن والمستوى الإدراكي، فأجبته بإيجاز يا بني تصور بأن موارد العالم بأسره مئة ليرة سورية، وأن 10٪ بالمائة منهم يملكون 90٪ من الموارد و90٪ يملكون 10٪ بالمائة، فهل من يملكون 10٪ يستطيعون أن يسددوا حاجاتهم الأساسية مع وجود منافسيهم المالكين للتسعين بالمائة، فقال: ببساطة فهمت ما تقصد، وهو سبب كاف لأن أسباب هذا الغلاء هو استئثار القلة بالثروة، لكن سؤال ابني حرضني على التفكير والكتابة لإبداء وجهة نظري بتفصيل أكثر وهي:

ـ تكمن بذور المشكلة في سيطرة المبدأ الرأسمالي وقيمه على ثقافة الشعوب والأمم، منذ خرج الأوربيون بدافع الجشع والطمع لاستعمار الشعوب والسيطرة على مواردها، ومنذ لحظة وصول (كريستوفر كولومبوس) إلى الأراضي الجديدة فيما يعرف الآن بالولايات المتحدة، وكان وراء هذه العصابات ملوك وأباطرة أوربا مدعومين بالتبشير الكنسي، فسيطروا على خطوط التجارة الدولية وأخضعوا شعوب البلاد المفتوحة لسيطرتهم.

ـ استطاع آدم سميث أبو المذهب الحر أن يبرمج لهؤلاء المستغلين أسس المبدأ الرأسمالي، عندما قرر أن قيمة السلعة تقدر بقيمة المنفعة، وأن المصلحة والرغبة هي التي تحدد مبدأ العرض والطلب.

ـ استطاع الأغنياء والمتنفذون أن يستغلوا حركة الجياع والمحرومين في فرنسا عام 1789، فحولوا ثورة المظلومين إلى سيطرة فكر للرأسماليين وليست عاطفة فقط، وما سمي بعصر الأنوار، أصبح عصر سيطرة تجار الرأسمالية لكن بشكل قانوني، وانتقلت هذه الثورة إلى سيطرة لجيوش نابليون على موارد العالم ومنافسة للبريطانيين متمثلين بشركة الهند الشرقية التي سبقتهم بالاستعمار، ووقعت مبادئ الثورة الفرنسية ضحية للفكر الماسوني وشريكه الرأسمالي.

قامت الحركة الماركسية البلشفية باسم الجياع والمحرومين عام 1917م لترد للعمال والفلاحين حقوقهم المسلوبة، بتبني النظرية المادية في الأيديولوجيا والنظرية التاريخية في

صراع الطبقات، ووصلت إلى الحكم لإنصاف المظلومين وتوزيع الثروة على الجميع، لكنها لم تعمر أكثر من / 70/ سنة، حيث باع خلفاء لينين وستالين البلاد والعباد للغرب، فسرقت أموال الأمة من كبار متسلطي الماركسية وعادت سيطرة القلة القليلة على الكثرة الكثيرة، وأصبحت تسمع بمن يملك المليارات من رجال أعمال روس ولم يبلغ عمره / 35/ سنة، من أين أتى بهذا المال وكيف نهب أموال الشعب وبهذه السرعة الفائقة. حتى أن بعض ضباط الجيش باعوا الطائرات على المهابط، وباعوا نياشينهم في سوق السبت والأحد، فعاد واختل مرة أخرى ميزان الثروة، لأن منهج الماركسية بالتوزيع كان مخالفاً للفطرة والميول والغريزة.

ـ إذن الخلل ليس في الموارد وإنما الخلل في سيطرة القلة المالكة على الكثرة المحرومة، فاستأثرت هذه القلة بالمال العام وأصبحت هذه القلة تملك القرار السياسي والاقتصادي في الدول الكبرى، فسيطرت العوائل المالكة في الولايات المتحدة وأوربا والعالم الغربي على أرزاق الناس وحياتهم، وسيطرت على ما يسمى بالعالم الثالث عن طريق المصارف التابعة للمنظمات الدولية ورجال الأعمال.

ـ والسؤال الجدلي إذا كانت ما يسمى بشعوب العالم الثالث غير قادرة على تغيير منهج العالم الغربي في الاستعمار والاحتكار في أيام العولمة التي نعيشها، والتي يتحكم فيها رجال الأعمال بأنفاس تفكير شعوبهم قبل الشعوب الأخرى.

فهل هناك ما يمنع حكام وشعوب العالم الثالث من منع احتكار المال العام على فئة، ممن يسمون برجال الأعمال الذين استأثروا بثروات الأمة بشكل مشروع أو غير مشروع، واستغلوا حالة الفساد السياسي والاقتصادي والإداري لسرقة المال العام، لا يوجد ما يمنع من إعادة توزيع المال العام بشكل رضائي أو قسري، وهذا وحده الذي يوفر للجميع حاجاتهم الضرورية والكمالية ويجعل الاقتصاد الوطني والقومي بحالة صحة وقوة، وخاصة عندما يبدأ الكبار بأنفسهم لإصلاح الفساد الذي أنتج الخلل في توزيع الثروة، متمثلين قول الرسول ﷺ (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم) وقول علي رضي الله عنه (عجبت لرجل لا يلاقي قوت يومه ولا يحمل سيفه على عاتقه).

ـ إن ما تدعيه أجهزة الأعلام الغربية ومراكز الأبحاث الاقتصادية والإستراتيجية، بأن أزمة الغذاء وما نجم عنها من ارتفاع الأسعار،منوط بالتكاثر السكاني العشوائي في آسيا وإفريقيا، وأن سلة الغذاء في العالم أثر عليها إنتاج الوقود الحيوي من مواد أساسية للإنسان كقصب السكر والذرة والبطاطا، وذلك لعدم كفاية النفط الخام الطبيعي لسد حاجات العالم الصناعي.

كل ذلك يقال لصرف نظر الشعوب المقهورة والمظلومة عن حقها في إعادة توزيع الثروة، وأثر ذلك على العرض والطلب عند عدم توفر التوازن بين السلع وإمكانية الحصول عليها. وإن كل ما يقال خلاف ذلك من باب الترقيع والتسكين المؤقت الذي لا يجدي نفعاً في حصول الاستقرار الاقتصادي في المجتمعات، ويقيناً إن الموجود في الطبيعة من مواد كاف للبشر إذا أحسن استخراجه وتوزيعه، مصداقاً لقوله تعالى عن الأرض التي نعيش عليها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ صدق الله العظيم.

دمشق 22/ 4/ 2008

رداً على الأستاذ رفاعية:

بتاريخ 16/ 4/ 2008 رقم العدد / 13590/ كتب الأستاذ ياسين رفاعية في صحيفتكم الغراء، مقالاً بعنوان: (ليتشبهن بهن.. نساء .. نساء.. نساء..) وتعليقاً، على ذلك أقول:

ـ يا أستاذ رفاعية! إن التاريخ ليس مصدراً من مصادر التشريع في الفقه الإسلامي، وإن تاريخ كل أمة من الأمم غالباً ما يكتب بيد محب أو مبغض، وكلاهما يكون قد تأثر بثقافة سخرها لهواه ولهوى حكام قد ارتضى أن يكون مطية لهم، ولهذا لا يعتبر التاريخ حجة في الأحكام الشرعية، ومصدراً لسلوك الأمة والأفراد.

ـ إن مصادر التشريع الإسلامي في كتاب الله وسنة رسوله، كمصادر أساسية إضافة إلى المصادر التبعية التي اختلفت المذاهب الإسلامية في تحديد وعائها، وإن نص الوحي، هو الذي يحدد سلوك الإنسان سواء أكان رجلاً أو امرأة تجاه الإقدام على فعل أو الإحجام عنه، وإن المجتهد الفقيه هو الذي يدرس المسألة وذلك بفهم الواقع ثم ينزل

النص المنطبق على الواقع على غلبة الظن، ولهذا عرف الفقهاء الفقه، بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية.

ـ إن ما ساقه كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وأضرابه من مؤرخي حياة الفساق والفجار وما نقله عنهم صاحب دار الهلال الأستاذ جرجي زيدان، ليس مصدراً للسلوك عند المسلمين، وإن حياة المرأة المسلمة وما يجوز لها أو ما لا يجوز يتقيد بالأحكام الشرعية في حياتها العامة والخاصة.

ـ إن الإسلام لم يميز بين الرجل والمرأة في الحياة العامة، وهو الدين الوحيد الذي خاطب الإنسان بوصفه إنساناً وليس بوصفه رجلاً أو امرأة، وكل الآيات والأحاديث بهذا الخصوص بدأت بـ (يا أيها الناس.. أو يا أيها الذين آمنوا..)، ولا يوجد خطاب صادر عن الوحي سواء أكان من كتاب الله أو سنة رسوله، خصّ الله به الرجال أو النساء أو ميّز بعضهم على بعض في الحياة العامة، فالمكلف هو الإنسان وليس الرجل أو المرأة، والجميع متساوون أمام الأحكام الشرعية سواء أكانت في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو الحكم.

ـ لم يخص الإسلام الرجل أو المرأة في حكم خاص إلا إذا كان الحكم الشرعي يتعلق بالطبيعة البشرية لكل منهما، أي الطبيعة الخلقية (الجبلِّية)، فخص المرأة بأحكام العورة والحيض والنفاس والحضانة، وما إلى ذلك، وخص الرجل بأحكام النفقة والوصاية والقوامة والولاية، وما إلى ذلك، فالمرأة والرجل على حد سواء مكلفون على سبيل الوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة، بالحلال والحرام، وهم مسؤولون أمام القانون والمجتمع عن تقصيرهم في الدنيا، وأمام الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

ـ كان الأحرى بك إن أردت الرفعة والعزة لشعبك وأمتك، وخاصة في هذه الأوقات العصيبة، حيث تكالبت عليها الأمم، كما تحيط الأكلة بالقصعة، أن تذكر قصص التاريخ التي تساعد شعبك وأمتك على النهوض والوقوف أمام الهجمة الثقافية الغربية وخاصة الأمريكية التي تحاول تغيير ثقافة ومناهج هذه الأمة.

يا أستاذ رفاعية، هل نسيت أن سمية رضي الله عنها كانت أول شهيدة في الإسلام قتل ابنها عمار أمامها صبراً وقلبه مطمئن بالإيمان، وهي فضلت الموت على أن تترك عقيدتها وتشتم نبيَّها، فكانت أول من عمل في السياسة من نساء المسلمين، وهل نسيت

أسماء ذات النطاقين وخديجة بنت خويلد، وخولة بنت الأزور، وأم عمارة، والخنساء، وأمثالهن كثيرات.

ـ في هذا الوقت العصيب تنطلق فيه النساء للاستشهاد في فلسطين والعراق، تسوق لنساء قومك قصة عريب المأمونية للتشبه بها والتي بقيت مع صاحبها حتى الفجر تعاقر الخمرة، لتحضهن على الفجور من خلال حياة Boy Girl friend، ولتكتمل لهذه الأمة أسباب الهزيمة والتخلف.

ـ لعل عيشك المديد في بريطانيا قد أثّر على طريقتك بالتفكير، فأصبحت غربي العقلية ولكن تلبس عباءة قومك والرسول عليه الصلاة والسلام قال لأهله، وقومه: (والله لو غششت الناس جميعاً ما غششتكم).

آملاً منكم كتابة إيضاح عما ذكرته في مقالك حتى تفهم نساء قومك وشعبك ما المقصود فيما ذكرت، تبرئ ذمتك من الحض على التحلل حيث إني لا أزال أذكر كتاباتك بعد وفاة زوجتك يرحمها الله، فقد كانت كتابات مؤثرة ولا تمت بصلة إلى ما تكتبه الآن، فكنت تكتب بعقلية أهل الشرق وبعد أن نسيت تكتب الآن بعقلية أهل الغرب، وإذا لم تصدقني آمل أن تعود لتقرأ ما كتبته في تلك الفترة.

دمشق 21/ 4/ 2008

تعقيباً على الملتقى الوطني حول جرائم الشرف:

إن ما نشرته صحيفتكم الغراء بتاريخ 22/ 10/ 2008 العدد / 505/ تحت عنوان: (الملتقى الوطني حول جرائم الشرف)، ذكرني فيما كتبته حول نفس الموضوع بتاريخ 6/ 4/ 2007، تعليقاً على مقابلة الأستاذ عساف عبود مراسل هيئة الإذاعة البريطانية مع عضو مجلس الشعب السوري الدكتور محمد حبش، والذي أرسلته إلى جريدة الثورة (صفحة الدين والتراث)، والتي يشرف عليها الدكتور حبش كما سمعت، ولكن الدكتور على ما يبدو لم يجز نشر هذا الرد في حينه.

ولقد وجدت من المناسب أن أرسل لكم الرد نفسه لنشره باعتباره حيثيات للنظر في المادتين / 548 ـ 192/ من قانون العقوبات العام إضافة إلى الاقتراح بتعديل المادة / 548/ لتكون على النحو التالي:

أولاً: يستفيد من العذر المحل، ذكراً كان أم أنثى، من فوجئ بزوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في جرم الزنا المشهود، أو أعمال فحش جنسي مع شخص آخر، فأقدم على قتلهما أو إيذائهما، أو على قتل أو إيذاء أحدهما بغير عمد.

ـ تم إضافة كلمتي (ذكر، أنثى) لأن رد الفعل والغيرة لا يقل عند الأنثى عن الذكر، وربما كانت أقوى عندها، ولأن الشارع لم يميز بين الذكر والأنثى في التكاليف والرخص الشرعية.

ـ تم استبدال كلمة (فاجأ) بكلمة (فوجئ)، من أجل استبعاد أي شبهة تخطيط مسبق وعمد في ارتكاب الجرم، فالعذر المحل مشروط بالاندفاع الغريزي والعاطفي، وتحجيم دور العقل، بل ربما إسقاطه، وهذا لا يستوي مع التخطيط الذي يتنافى مع المفاجأة.

ـ جرى استبدال كلمة (صلات) بكلمة (أعمال) لأن الصلات الجنسية مفهومها مرن كثيراً، ومدعاة للشبهات التي تدخل ما هو غير جرمي بالجرمي، بل لابد من استعمال كلمة (أفعال) حيث تكون الصدمة كبيرة على المفاجأ، لرؤيته الفعل المادي أمامه ولا يدخل فيه الصلات المعنوية والحسية.

ـ كلمة (زوج) تشمل لغة الذكر والأنثى فكلاهما زوجين.

ـ كما أن كلمة (بغير عمد) الأخيرة في هذه المادة ضرورية جداً لأنها تؤكد على عدم جواز استعمال المعلومات السابقة التي تكون أساساً لارتكاب الجرم، فالعمد يوجب المعرفة والتخطيط المسبق.

ـ وبذلك يستقيم مفهوم هذه المادة مع القوانين الوضعية التي استقى منها المشرع السوري حيثياته وموجباته، كما يستوي مع الشرع الإسلامي، باعتباره أحد مصادر التشريع في البلاد.

ثانياً: إلغاء الفقرة الثانية من المادة / 548/ لأن استعمال المشرع لكلمة (حالة مريبة) يفتح الباب أمام كل إنسان سفيه أو حاقد أو صاحب هوى وغرض لتفسير كلمة (مريبة) كما يحلو له، وهذا خلاف لمقاصد الشريعة وللقاعدة (ادرؤوا الحدود

بالشبهات..) وإن مجال إعمال ما ورد في هذه الفقرة هو قانون العقوبات العام، ومنها أحكام المواد (178 ـ 194) بحيث تنطبق على كافة أنواع الجرائم التي تستوجب العذر المخفف بما فيها ما أسماه الصحفيون الغربيون جرائم الشرف.

ثالثاً: بناءً على ما تقدم تبقى المادة / 192/ دون أدنى تعديل لأن لا علاقة لهذه المادة بما يسمى خطأ جريمة الشرف، بل هذه المادة ذكرها المشرع السوري في الفصل الثاني، تحت عنوان: في عنصر الجريمة المعنوي، وأتبعها بقسم 2 ـ الدافع.

وهذه المادة ما ورد فيها ينطبق على كافة الجرائم الواقعة من جهة على أخرى، عندما يبحث المشرع في دوافع ركن الجريمة المعنوي سواء أكان الجرم (رشوة، قتل، إيذاء، سرقة..) أو أي عمل جرمي آخر، فمن يسرق لشراء دواء لابنه المشرف على الموت، لا يستوي مع من يسرق ليلعب القمار، ولو أن الجرم في كل الحالات سرقة.

وختاماً آمل إذا رغبتم في نشر هذا الموضوع أن ينشر كاملاً، مع ردي على الدكتور محمد حبش، والمرفق مع هذا الخطاب، وإلا فلا يستقيم هذا التعديل المقترح من قبلي بدون الحيثيات المذكورة.

ولكم تحياتنا 30/ 10/ 2008

د. حبش منكر للسنة أم جاهل في علم أصول الفقه:

صباح هذا اليوم السبت الموافق 7/ 4/ 2007 نقلت هيئة الإذاعة البريطانية من لندن بعد نشرة الأخبار الصباحية عن مراسلها بدمشق، تقريراً بخصوص عدم موافقة مجلس الشعب في سورية على طرح إقتراح بتعديل أو إلغاء المادة / 584/ من قانون العقوبات العام، التي أعفت من العقوبة من فاجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في جرم الزنا المشهود.

نص المادة / 548/ ق.ع عام:

1 ـ يستفيد من العذر المحل من فجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في جرم الزنا المشهود، أو في صلات جنسية فحشاء مع شخص آخر، فأقدم على قتلهما أو إيذائهما، أو على قتل أو إيذاء أحدهما بغير عمد.

2 ـ يستفيد من يرتكب القتل أو الأذى من العذر المخفف إذا فاجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في حالة مريبة مع آخر.

ولقد علق فضيلة الشيخ الدكتور محمد حبش بصوته المميز على تمرير هذا الاقتراح من قبل مجلس الشعب وعدم طرحه للتصويت في هذه الدورة، بأن قيام الزوج بجرم القتل هو زيادة عما فرضه الله سبحانه وتعالى على الزاني، وهو حد الجلد، ولم يتطرق سعادة الدكتور إلى أن هناك سنة نبوية، وهذه السنة تشريع من الله سبحانه وتعالى مثل القرآن الكريم، تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عامه وتفسر مشكله، وهي أصل من أصول الدين عند المسلمين جميعاً، قد أجمعت المذاهب الإسلامية على أنها مصدر من مصادر التشريع الأساسية في الإسلام، وهي الكتاب والسنة والقياس والإجماع، واختلفوا في المصادر الفرعية التبعية، وكل منهم مأجور على خلافهم إن شاء الله، فإما أن فضيلة الدكتور لا يقر بأن السنة أصل من أصول الدين التشريعية وأنها حجة عند المسلمين، وإما أنه لم يطلع من خلال دراسته الطويلة بالفقه وعلم الحديث، عما روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالحديث الصحيح والسنة المشهورة بأنه رجم ما عز رضي الله عنه، كما رُجمت الغامدية رضي الله عنها، وهذا ثابت عن الرسول عليه الصلاة والسلام بإجماع الصحابة، بتطبيق حد الزاني رجماً على المتزوج سواء أكان رجلاً أو امرأة، وفي الموضوع تفصيل ليس هو مقصودنا في هذه العجالة.

هذا بالنسبة إلى أن حد القتل ممكن إيقاعه على الزاني أو الزانية المتزوجين بشكل عام إذا ثبت الجرم بشهادة أربعة شهداء أو بالإقرار، ولا أعلم فيما روي من المأثور أن حكم الرجم أو الجلد طبق على زانٍ إلا باعترافه والثبات على هذا الاعتراف نظراً لصعوبة أو استحالة الثبوت بالشهود الأربعة.

ـ إن الموضوع المطروح هو حالة خاصة تقضي بأن يتقلد الزوج صلاحية الحاكم ويقوم بتنفيذ حد القتل نيابة عن الحاكم.

الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يغتصب صلاحية الحاكم ويقوم بدور القاضي والمنفذ وهذا معروف من الدين بالضرورة في التشريع الإسلامي، حتى أن الآيات من (5 ـ 9) من سورة النور شرحت هذه الوضعية بوضوح على النحو التالي، النص قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾.

واضح من هذه الآيات بأنه لا يجوز للزوج قتل زوجته أو إيذاؤها ولو وجدها متلبسة بالزنا على فراشه، وعليه أن يأتي بأربعة شهداء، وفي حالة عدم وجود أربعة شهداء فليس أمامه إلا (الملاعنة) كما هي بالآيات السابقة ويفرق الله بينهما إلى الأبد، والحساب والفضيحة عنده في الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه لأن الآيات حددت إما أنه هو ملعون إن كان من الكاذبين، أو هي حل عليها غضب وسخط الله إن كان من الصادقين، وإن حديث سعد رضي الله عنه واضح في هذا الخصوص عندما قال للرسول عليه الصلاة والسلام: (إن وجدت زوجتي مع زانٍ على فراشي هل أذهب لأحضر أربعة شهود، قال عليه الصلاة والسلام: نعم).

إذن موضوعنا التي تعالجه المادة / 548/ ليس هو إيقاع حد الزنا في حال ثبوته شرعاً على زانٍ أو زانية بكراً، حتى يكون رد فضيلة الدكتور بأن حد الزاني أو الزانية هو الجلد، بل موضوع المادة، هو حالة مفاجأة رجل بوجود آخر في حالة تزاني مع زوجته أو أحد محارمه من الأصول أو الفروع.

هذا هو الموضوع الذي أطلق عليه القانونيون ومناصرو الحريات الغربية جريمة الشرف، علماً أن التطبيق العملي لهذا الطرح يُثبت أن جرائم الشرف لا علاقة لها بالموضوع الذي طرحه الدكتور حبش، ومن وراءه من الدوائر الغربية، لأن جرائم الشرف هي نوع من جرائم الثأر التي تقوم على التخطيط والملاحقة وعلى سبق الإصرار والترصد والعمد، ولا تقوم على عنصر المفاجأة كما حددها القانون في المادة / 548/ ، هذه المادة اعتبرت أن القاتل قد ارتكب جرماً في إزهاق روح بشرية، لكن المشرع راعى أن هذا الإنسان مرتكب الجرم قد وقع تحت شروط ومؤثرات خارجة عن إرادته، فأصبح حكمه حكم مسلوب الإرادة الذي جن جنونه مؤقتاً يستوجب رفع القلم والحساب عنه، حيث وجد زوجته أو أحد أصوله أو فروعه في حالة تدع الحليم حيراناً والعاقل مجنوناً والمريد مسلوب الإرادة،

وهذا شيء فطري ليس له علاقة بدين أو نظام، إنه رد فعل ناجم عن فعل فعلي مؤثر وليس عن طريق افتراض نظري.

وإن كافة الأديان والعقائد، الإسلامية واليهودية والنصرانية والبوذية والهندوسية جميعها ذمت فعل التزاني، واعتبرته من الفحشاء والمنكر لا يجب أن يشيع بين الناس، إلا أن حالة إلقاء القبض على الزاني متلبساً بالجرم مع زوج أو ذي محرم، اعتبرته كافة الشرائع السماوية والوضعية بأنه امتحان صعب للمفاجَأ لا يحسد عليه، ولا يمكن تصور ما يحدث مع إنسان من رد فعل إذا وقع أمام هذا الابتلاء.

حتى إن القوانين الوضعية والأعراف والتقاليد التي استمدت منها القوانين سواء أكانت المدرسة الفرنسية اللاتينية الرومانية أم المدرسة الأنجلوسكسونية العرفية، جميعها اعتبرت أن مفاجأة الرجل أو المرأة بأحد الأصول أو الفروع بوضعية تزاني على فراش الزوجية أمر إن حصل، فهو في أعلى حد عذر محل من العقوبة أو مخفف لها بحسب واقع حال التزاني ووضعية وصلة القربى، لأن القانون قدر أن هذا المفاجأ هو إنسان عاقل لكنه قد ينشلّ عقله مؤقتاً فيدخل في الجنون المؤقت أو سلب للإرادة بشكل مؤقت أيضاً، وهذه هي الحالة التي عالجها استثناءً حديث الرسول عليه الصلاة والسلام في كتب الفقه الإسلامي تحت فصل (إذا وجد رجلاً يزني بامرأته فقتله فلا قصاص عليه ولا دية)، وهي في رواية هشيم عن مغيرة عن إبراهيم عن سعيد في المغني 10/ 353 أن رجلاً وصل راكضاً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسيفه في يده يقطر دماً، ويتبعه قوم يقولون إن هذا الرجل قتل صاحبهم مع زوجته، فسأله عمر، فقال: نعم ضربت فخذي امرأتي بالسيف فإن كان أحد بينهما فقد قتل، فقال: عمر ما يقول الرجل، فقالوا: نعم قطع فخذي امرأته فأصاب وسط الرجل فقطع باثنتين، فقال عمر: للرجل إن عادوا فعد.

وهذه الرواية تدل على أن عمر رضي الله عنه قد حكم باعتباره قاضٍ في هذه الواقعة وليس باعتباره خليفة للمسلمين، بعد أن اعترف الزوج القاتل وصدَّق على إقراره قوم من الناس شهدوا بأن المقتول كان بين فخذي المقتولة الزوجة، فحكم عمر رضي الله عنه وهو صاحب الولاية كأمير للمؤمنين وقاضٍ بأن هذا القاتل قَتَل دفاعاً عن عرضه،

فله الحق بقتل من ألقي عليه متلبساً بجرم التزاني مع زوجه وبحالة استثنائية وخاصة من باب تخصيص العام، فالجرم واقع والقتل واقع، ولكن لا عقوبة استثناءً من حديث سعد رضي الله عنه الذي طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام إذا وجد زوجته بهذه الحالة أن يذهب ويحضر أربعة شهود. وهذا ما يجب أن يكون عليه حال الزوج شرعاً، ولكن إذا لم يمنحه الله الصبر والأناة والتمسك بالحكم الشرعي، وخرج عن تفكيره وعقله وجن جنونه وسلبت إرادته فحكم عمر هو الذي يقع، وهو حكم من سقط عنه القلم والتكليف والله أعلم.

إن كافة الشرائع والكتب السماوية والقوانين الوضعية راعت هذه الصفة الإنسانية، فحرمت القتل، وعالجت مشكلة القتل في حال وقوعها كأي واقع فأعطت عذراً محلاً أو مخففاً حسب الحال والمقال.

إن اعتراضي على الدكتور محمد حبش ليس بالخلاف والاجتهاد، فهو واجب وجائز في حق المسلمين، ولكن أن لا يقر بحجية السنة وبأنها مصدر من مصادر التشريع متجاهلاً إياها وعلناً وجهاراً ونهاراً مع هيئة الإذاعة البريطانية، هذه هي الجريمة التي يقترفها الدكتور المحدث محمد حبش وأمثاله، فإن سكت بعض العلماء على الدكتور حبش عندما قنن في كتاباته عن المرأة ليرضي الغربيين وخاصة الأمريكان، عندما كان يلوي عنق الأدلة الشرعية ويطوعها لرغبته بواقعية وذرائعية، فلا يجوز السكوت عليه عندما ينكر السنة مطلقاً كأصل من أصول التشريع، ولكن هيئة الإذاعة البريطانية لن تدخله الجنة، وكذلك رضا القائم بأعمال السفارة الأمريكية (مايكل كوربون)، الذي دعاه إلى حفل السفارة الأمريكية بدمشق على شرف (نانسي بلوسي) بتاريخ 5/ 4/ 2007، كما ذكرت جريدة الحياة في العدد رقم / 16017/ ، علماً أنه يشاع بأن السفارة الأمريكية لا تعطيه تأشيرة لدخول الولايات المتحدة، ثم نسمع عن محاضراته وقبوله في الولايات المتحدة زائراً معززاً مكرماً، إن الأحكام الشرعية يا فضيلة الدكتور لا تتغير حسب طقس الولايات المتحدة ورضاها وغضبها، وبالله المستعان.

دمشق 9/ 4/ 2007

تقدم العرب المسلمين وتخلف الغرب المسيحي، تصريحات القس ويليامز:

لماذا قامت قيامة البريطانيين ولم تقعد، على إثر تصريحات رأس الكنيسة الأنجيليكانية أسقف كانتربري القس روان ويليامس، التي تعرض فيها إلى إمكانية تطبيق بعض أحكام الشريعة الإسلامية المتعلقة بالأحوال الشخصية على مسلمي بريطانيا.

ـ لا يمكن دراسة ردود الفعل في بريطانيا وأوروبا على مثل هذه التصريحات إلا بدراسة الظروف والملابسات التي طرحت أثناءها من خلالها.

ـ قبل أيام من تصريحات أسقف كانتربري، ذكرت صحيفة التايمز البريطانية فقرات من ثلاثة كتيبات أصدرتها وزارة الدفاع البريطانية تحت مسمى (احترام) طلبت في هذه التعميمات من كافة منسوبيها العاملين في أفغانستان والعراق والشرق الأوسط، أن يعاملوا أهل البلاد بكل الاحترام والتقدير وأن لا يخرجوا عن حدود اللياقة والقيم التي تمارسها شعوب هذه المنطقة.

ـ واللافت للنظر أن التعميمات طلبت من منتسبي القوات البريطانية أن يتأدبوا في جلوسهم وأن لا يرفعوا الحذاء في وجه من يتكلمون معه، وأن لا يمدوا يدهم لمصافحة امرأة، وأن يتناولوا الطعام بيمينهم كما هي سنة الرسول محمد (ﷺ).

ـ بعد صدور هذه الكتيبات بأيام، لحقت وزارة الدفاع الأمريكية بقدوتها في الخبث وزارة الدفاع البريطانية، وأصدرت تعميماً تطلب فيه من منتسبيها العسكريين والمدنيين أن يتعاملوا بكل الاحترام والنعومة والشفافية مع أهل هذه المنطقة، ويحاولوا كسب قلوبهم بفضل حسن المعاملة.

ـ والسؤال الذي يطرح نفسه أولاً: لماذا هبطت هذه القيم الرفيعة على الأمريكان وأساتذتهم البريطانيين فجأة، وثانياً: هل تصريحات الأسقف ويليامس جديرة بهذا الاهتمام، وكأنه أتى بما لم تأت به الأوائل.

ـ إن هذه التعميمات تدل على أن الأمريكان والبريطانيين وحلفاءهم في مأزق كبير بعد أن ثبت أنهم يحتلون أفغانستان في النهار، وفي الليل يختبئون، وأنهم احتلوا فندق فلسطين في العراق ولم يحتلوا العراق، حتى ولو تواطأ معهم بعض أوباش العراق

ومرتزقته من بقايا شيوخ قبائل لورنس، وتلامذة مدارس ومعاهد وبعثات الجامعات الأمريكية والبريطانية، المنبوذين من قبل الأمة حتى قيام الساعة.

ـ إن الأمريكان من سلالة الأوروبيين وخاصة البريطانيين، جميعهم أبناء قطاع الطرق واللصوص الذين وصلوا إلى أمريكا ابتداءً من عام 1492م، وأفنوا الملايين من الهنود لأنها مخلوقات بشرية تعيق التطور، وذبحوا بعضهم بمجازر يندى لها الجبين بين أهل الغرب والشرق، والجنوب والشمال، هذه المخلوقات لا يمكن أن تكون عندها قيم ذاتية رادعة، لأن زعيم مذهبهم الحر آدم سميث جعل المصلحة هي التي تحدد قيمة الشيء وما فيه من منفعة ليستحق الحياة والاهتمام والاحترام أم لا. ولذلك لا يمكن لهذه الكائنات أن تفهم إلا إذا تعرضت مصالحها للخطر، وهي لا يمكن أن تحترم إنساناً أو جهة أو هيئة إلا إذا كانت قادرة على الإضرار بها، وكان الضرر الناتج أكثر من المصلحة المتوقعة. وهذه القوانين يطبقونها بين بعضهم على أنفسهم، ولا يفهمون غيرها، ولا يستطيعون أن يفهموا خلاف ذلك، ورواية (المجنون والحمام الشعبية) تنطبق على هذه الكائنات البشرية من أوروبية وأمريكية، عندما فر جميع مرتادي حمام السوق مسرعين وكلهم يقول: هناك مجنون في الحمام يضرب الجميع (بالقباقيب)، فما كان من مجنون آخر إلا وقال دعوه لي، فدخل الحمام وجمع القباقيب وأخذ يرميها بقوة مجنون مخطط على مجنون متورط وبسرعة (رشاً) وليس دراكاً، فما كان من المجنون السابق إلا أن غادر الحمام وهو عاري ويصيح، يا للهول، الفرار الفرار، هناك مجنون داخل الحمام.

والسؤال الذي يرد هل وجد الأمريكان والبريطانيون ومن خلفهم من الأوربيين أن هذه المنطقة المسلمة العربية عصية عليهم، وأنهم لا ولن يستطيعوا أن يغلبوها بالقوة المادية، لأن عندها قوة روحية قادرة على الوقوف ضد المنطق وضد الرياضيات، فيحاولون الآن استدرار عطف هذه المنطقة والعودة إلى أساليبهم الخبيثة لكسب عواطف شعوب المنطقة، وتصعيد العداوة والبغضاء بين أهلها وقبائلها وقياداتها. كما فعل لورنس عندما لم يستطع دخول دمشق إلا بحمايةبعض القبائل العربية، بعد أن أعماها بالذهب والاحترام الكاذب والوعود البراقة، بهدف تجزئة هذه الأمة للمرة الأولى بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، على إثر تواطؤ سايكس بيكو، والمسمى شريف مكة.

ـ ثانياً: إن من عاش ويعيش في بلاد المسلمين يلحظ أن القس ويليامس جزاه الله خيراً، لم يقدم شيئاً، وإن ما قاله: ليس له وزن بموجب قيم شعوب منطقتنا المتحضرة، إذا قارنتها مع شعوب العالم الأوروبي المتخلف، والذي يضفي على نفسه صفة الحضارة ويضفي علينا صفة التخلف.

ـ إن الإسلام اعترف بكل الأديان السماوية، يهودية، نصرانية، وحتى اعترف بوجود الديانات الشركية كالبوذية والهندوسية والشنتوية، وكان دائماً يطبق عليهم الأحكام التي وردت في عقائدهم وأقرها أحبارهم، وهذا كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يهود والمشركين واضح في المدينة المنورة بأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وزيادة على ذلك، ما شرع في شرائعهم يلتزمون به كأحكام العبادات والأخلاق، وفي مجتمعاتهم كشرب الخمر وبيعه وأحكام الزواج والطلاق والعورة والاختلاط، وحتى أن المسلم الذي يتزوج بكتابية، يهودية أو نصرانية يوصلها إلى الكنيسة أو الكنيس لأداء العبادات المتوجبة عليها بموجب اعتقادها، وكل من انتسب إلى كليات الحقوق والشريعة في جامعة دمشق، درس مادة الأحوال الشخصية لغير المسلمين التي أقرت المحاكم الروحية التي تطبق على غير المسلم شريعته التي آمن بها.

ـ إذن لماذا هذه الأهمية الكبيرة لمثل هذه التصريحات الصادرة عن رأس الكنيسة الأنجليكانية أو عن ولي عهد بريطانيا (الأمير تشارلز) في أهمية الإسلام ووجوب احترامه والتعامل مع المسلمين كأساتذة، كما قال تشارلز في محاضرته بجامعة أكسفورد: حيث علموا الأوربيين أصول الإتيكيت وأصول الحضارة والثقافة، وأن الغرب كان عالة على المسلمين كما قال.

ـ إن المسلمين والعرب قد فاقوا الغربيين بعد رسالة الإسلام في كل شيء، وكانت كلمتهم العليا في العالم كله لمدة اثني عشرة قرناً، وكانوا أساتذة للعالم في العلوم السياسية والعسكرية والاقتصادية، وكان ملوك أوروبا يرسلون أبناءهم للتعلم في بلادنا كما هي رسالة ملك إنكلترا إلى خليفة المسلمين في الأندلس المرفقة:

كل هذه الحضارة الإنسانية الراقية والعالمية شوهها الغرب وصدقهم الكثير من أبنائنا، بأننا كنا دائماً عالة على الغرب وأننا أمة متخلفة ومنحطة ولا يمكن أن تقود العالم

مرة أخرى، ولذلك فقد شوهوا التاريخ وشوهوا الواقع، وأفهمونا أن المسلمين والعرب متخلفون ولا يمكن أن يتقدموا مرة أخرى، علماً أن ما أقدم عليه الآن الأمريكان والبريطانيون خدمة لمصالحهم، وهم مرغمون لاحترام المسلمين والعرب ولو نفاقاً، بينما الذي قدمه الإسلام والعرب للعالم كان عن قناعة، وعاشت جميع الملل والنحل تحت عز بيضة الإسلام باحترام وتقدير من غير منة ولا فضل.

دمشق 8/ 3/ 2008م

جنون الأفراد وجنون الشعوب:

يقال في اللغة: جُن فلان فهو مجنون، أو اعتراه مس من الجنون، ويقال: جنون طارئ وجنون متقطع وجنون مطبق وجنون عبقري، أما كلمة الجِن بالكسر، فهي ضد معنى الإنس، ووصفت الجن بأنها تفعل مالا يستطيع إنسان أن يفعله من أعمال خارقة، غير متصور إحداثها من البشر، فيبدو أن العلاقة بين جُنَّ ومنه الجنون وجن ومنها الجان، تتقاطع في إمكانية إحداث أفعال من قبل البشر هي بالأساس من مواصفات ومقدرة الجان، ولكن استطاع البشر فعلها بموجب شروط وظروف ومؤثرات، مكَّنت البشر من فعل أشياء بالأساس لا يستطيع فعلها إلا الجان، سواء أكانت هذه الأفعال إيجابية أم سلبية.

ـ العقل ليس الدماغ، وإن كان الدماغ أحد عناصره الأساسية، والعقل بهذا السياق ليس القلب وإن كان القلب يوصف بأن له أثراً كبيراً في الإحساسات والمشاعر والعواطف، باعتباره المضخة التي تسيطر على الدورة الدموية في جسم الإنسان، وهذه الدورة تتأثر بشكل مباشرة بالعمليات العقلية الكيماوية التي تجري في مستودع الدماغ كمركز لاستيعاب وتحليل المعلومات السابقة، فتؤثر على الحالة النفسية الناشئة عن تسارع الانقباض والانبساط في عضلة القلب فيحصل التوتر الناتج عن زيادة معدل مادة (الأندريالين) في الجسم، مما يؤثر على شدة أو ضعف التركيز في الجملة العصبية للإنسان، ولذلك استعمل العرب العقل بمعنى القلب على نقل الواقع، أي واقع إلى الدماغ بواسطة الحواس مع الربط بالمعلومات السابقة فتحدث العملية العقلية، بينما الإدراك الغريزي يعتمد على إشباع حاجات الكائن الحي سواء أكان إنساناً أم حيواناً، حيث يشترك الإنسان

والحيوان في الإدراك الغريزي، ويختلفان في إمكانية الإدراك العقلي الموجود عند الإنسان فقط، ويشتركان في الإدراك الغريزي الموجود عند كافة المخلوقات.

ـ إذن سلوك الإنسان يكون ناتجاً عن علمية عقلية مربوطة بإدراك عقلي، وليس مربوطة بإدراك غريزي، ولهذا عندما يتصرف الإنسان تصرفاً بدافع غريزي فقط، يقال عنه أنه جُن، وقد يكون هذا الجنون دائماً أو مؤقتاً، وليس لنا علاقة في هذا البحث بالجنون الدائم فهو من اختصاص علماء الطب المتخصصين في (الفيزيولوجي) وإنما موضوعنا يختص في (السيسيولوجي) أي في دوافع وبواعث الإنسان عند قيامه بسلوك معين اتجاه موضوع معين.

ـ الغرائز عند الإنسان ثلاثة: غريزة حب البقاء ومن مظاهرها حب السيادة والسيطرة والريادة والقيادة والتملك والحيازة.. وغريزة النوع، ومن مظاهرها الإشباع الجنسي، والأمومة والخؤولة والعمومة والرحم.. غريزة التقديس، ومن مظاهرها التدين والعبادة والطاعة والخوف، ولقد خلط بعض علماء النفس والاجتماع بين الغريزة ومظاهرها، ولكن أياً منهم لم ينكر وجود الغرائز على المطلق.

ـ الغرائز تحتاج إلى الإشباع وإذا لم تشبع يعيش الإنسان بقلق وحيرة وعدم استقرار، والإشباع قد يكون إشباعاً صحيحاً أو خاطئاً أو شاذاً، والذي يحدد كيفية الإشباع هو الفكر الأساسي والأفكار الفرعية التي يتأثر بها الإنسان، وهذه الأفكار التي هي التي تحدد السلوك سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، خيراً أم شراً، وهذا هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، حيث ينطلق الحيوان لإشباع غرائزه بدون إدراك عقلي، لأنه لا يملك وسائل هذا الإدراك وعناصره، بل ينطلق في إشباع غرائزه بشكل فطري فقط بناء على حاجات ومتطلبات الإدراك الغريزي.

ـ إن انطلاق الإنسان لإشباع غرائزه بمظاهرها بدون قيود عقدية وفكرية منبثقة عن عملية تفكير عقلية، هو الذي يجعله يسلك الطريق الحيواني في الإشباع المجرد عن أي قيم بناء على دوافع الغريزة الفطرية، بحيث يستوي في هذه الحالات الإنسان والحيوان، حيث لا قيود على التملك فتسود شريعة الغاب، ولا قيود على النوع فيسود الإشباع الجنسي بالاغتصاب والسفاح، ولا قيود على التقديس فيتعبد بالبشر والحجر، ولا قيود

على مظاهر غريزة حب البقاء، فيكون البقاء للأقوى والأظلم والأشرس، والذي لا يراعي أي قيم رفيعة في التعامل الإنساني، مما يؤدي للانحطاط إلى الدرك الحيواني في إشباع الحاجات.

ـ إن الكثير من الحالات التي يسمونها الجُنون الفردي، تؤسس على مزيج من مظاهر إشباع الغرائز الثلاث المذكورة آنفاً، وهي البقاء والتقديس والنوع (الجنس) عندما يصل الإنسان إلى مرحلة الإحباط، كونه غير قادر على حيازة الوسائل الصحيحة للإشباع بممارسة الكيفيات النابعة عن الإدراك العقلي، فينحدر سلوكه إلى الغريزة المطلقة الموجودة عنده وعند الحيوان، ويصبح سلوكه موجهاً بغريزته فقط، ومجرداً عن أي فكر أساسي (قيم) يحدد كيفيات الإشباع السليمة، فيكون هو والحيوان سواء، فيطلب السيادة على جماجم الآخرين، ويشبع الغريزة الجنسية بالمحارم أصولاً أم فرعاً، ويقتل من يخالفه بالفكر والرأي بدوافع غريزية حيوانية فقط.

ـ إن كبت الظلم والاضطهاد والاحتقار الذي يعانيه الفرد، يقوده أحياناً إلى تصرفات سلوكية مربوطة بالغرائز نظراً للتعطيل المؤقت للإدراك العقلي، أمام القوى الظالمة الغاشمة، وهذا يؤدي إلى اليأس عند الفرد من استحالة جدوى التفكير العقلي، فيقوم الفرد بتصرفات يطلقون عليها الجنون المؤقت.

ـ وفي هذا السياق نستطيع أن نفسر ما أقدم عليه الضابط الأمريكي الفلسطيني المسلم في قاعدة (فورت هود) الأمريكية، حيث تبث القنوات الفضائية التي ابتدعتها التكنولوجيا الغربية، كل يوم مظاهر الظلم الإسرائيلي الواقع على أبناء دينه وجلدته، نساءً وأطفالاً وشيوخاً كلهم يرزحون تحت الهيمنة والاستبداد والاحتقار اليهودي، بدعم أمريكي غربي، فيصل إلى مرحلة القهر مع عدم الاستطاعة إلا على ما هو مستطاع، وفي هذه المرحلة يفقد الإدراك العقلي وينتكس إلى الإدراك الغريزي الذي يولد الانتقام، بغض النظر عن الصح والخطأ لأنه فقد ملكة التمييز العقلي، حيث وصل إلى مرحلة قذف الذرة بالنيترون، التي تحتم الانفجار النووي، نظراً لاضطراب نظام (الإلكترونات والبيزترونات) الفيزيائي في الذرة الذي يحتم هذا الانفجار، مثله مثل الاضطراب الكيميائي عند الإنسان، الذي ولد اضطراباً نفسياً ولد هذا الانفجار.

بقي أن نوضح نقطة كانت ومازالت مجال خلاف عند علماء النفس والاجتماع، هذه النقطة هي الخيط الرفيع الذي يفصل بين العبقرية والجنون على صعيد الإمكانات الفردية.

فلقد وُصف كثير من الأنبياء والقادة والعلماء بالجنون في مرحلة من حياتهم وبالعبقرية في مراحل أخرى، ومنهم الإسكندر المقدوني وهانبعل، وخالد بن الوليد ومحمد الفاتح وهتلر وستالين وتشرشل وماجلان وكريستوفر كولومبس، وغاليلو ونيوتن على سبيل المثال وليس الحصر، كل هؤلاء قاموا بأعمال لا ينطبق عليها منطق الواقع والإمكانات، وخالفوا بقرارات اتخذوها منطق الممكن، وحكم عليهم المحللون النفسيون من خلال نتائج أعمالهم وليس من خلال الصح والخطأ، فحكموا بجنون العظمة على من فشل وبعبقرية الجان على من نجح، فوصفوا الفاشل بقصر النظر ووصفوا الناجح بأن استطاع أن يرى ما لا يرى غيره من القادة اليائسين.

ـ إن اللحظات التي غيرت مجرى التاريخ في العالم ليست بالكثيرة، فهي لحظة سريان عبقريات الأفراد إلى الشعوب والتقائها مع إرادة الحكم وعندها يكتب التاريخ للمنتصر أنه عاقل وللخاسر أنه مجنون، وأعتقد أن هذا ما قصده شاعر الأحاسيس المبكرة نزار قباني في قصيدته يا مجانين غزة، بقوله: أهلاً بالمجانين إن هم حررونا.

دمشق في 15/ 11/ 2009

الرضا الذاتي:

أثارت مقالتنا (القناعة ليست كنزاً) ردود فعل متباينة عند قرائها، وتحدث معي القراء بين مستنكر للآراء التي قدمت، وبين مستحسن، وفي كل الأحوال نحن لا نحمل أحداً من الناس على آرائنا، لكن واستزادة في الإيضاح آثرت أن أوضح مفهوم الرضا الذاتي.

الرضا الذاتي: أن يكون الإنسان منسجماً مع ذاته ويعيش حالة من الرضا على عالمه الذاتي بما ينطوي عليه من سلوك وأفكار وطموحات إلخ.. ويمكن أن نقول إن الرضا الذاتي قناعة الذات نفسها، وهذا أمر مختلف عن القناعة التي أشرت إليها في مقالنا السابق.

دعوني أعرض لكم الحالة الآتية: شخص وجد نفسه مهندساً وهو لا يطيق الهندسة من قريب أو بعيد، ورغبته أن يكون فاعلاً في حقل الموسيقا التي تتطابق مع

طموحه وروحه، فماذا عليه أن يفعل؟ ليس أمامه إلا ثلاثة احتمالات: إما أن يترك الهندسة إلى غير رجعة ويحزم أمره لدخول عالم الموسيقا، فيحقق الانسجام الذاتي والرضا الذاتي وينجو من الاغتراب المدمر الذي يعيشه، أو يرضى بما قسمه له ويقتنع بما هو عليه من حال لأن القناعة كنز لا يفنى، وينسى أمر الموسيقا، وهو إن فعل ذلك عاش حياة عادية لا جمال فيها ولا متعة.

أو أن يبقى في عمله الهندسي ويمارس هوايته الموسيقية في محافل ونوادٍ خاصة بالموسيقا فيحقق شكلاً من الانسجام مع ذاته مع بقائه في المهنة التي وجد نفسه فيها.

أما اللا حل فهو: أن في توتره واغترابه ونفوره السابق، ما سيؤدي إلى اكتئابه، وقد يؤدي إلى الانتحار أو إلى حالة نفسية صعبة الشفاء.

وكل اختيار بين هذه الممكنات مرتبط بالفرد وطبيعته وثقافته وبنيته النفسية، ولو سألتني ما الخيار الذي أفضل لأجبتك دون تردد: أفضل الخيار الأول كي أحقق الرضا الذاتي أجمل تحقيق.

ولو سألتني ما أسوأ الخيارات لأجبتك دون تردد الخيار الثاني، لأنه يدل على خنوع وخضوع وقناعة ناتجة عن شخصية ضعيفة، وقائل يقول: لكن هذا الخيار قد حقق رضاً ذاتياً، لكن شتان ما بين الرضا الذاتي الناتج عن الخنوع والرضا الناتج عن التمرد.

لو سألتك أيها القارئ العزيز أن تختار أحد الخيارات الآتية فما الذي تختاره؟.

تحرير فلسطين، الموافقة على تقسيم فلسطين بيننا وبين عدونا، قناعة منك بأن لا حل أحسن من هذا الحل، الموافقة على دولة فلسطينية في غزة والضفة دون القدس، دولة فلسطينية في غزة والضفة والقدس مقسمة إلى عاصمتين إحداها لنا والأخرى لعدونا، إذا كنت من أهل القناعة كنز لا يفنى فلن تختار الأول، أما إذا كنت من أهل القناعة كما هم أهل الحل والعقد فإنك ستختار أحد الحلول المتبقية، وقانا الله شر القانعين.

2011/3/16

د. أحمد برقاوي

رداً على د. أحمد برقاوي:

رداً على د. أحمد برقاوي (الرضا الذاتي) والمنشور في صحيفة الثورة بتاريخ 29/ 9/ 2009 رقم 14030.

ـ أعلم أن القناعة مصدرها الفعل الثلاثي (قنع) وهي تعني الرضا والقبول بما حصل، رغماً عن بذل أقصى ما يمكن من الوسع والجهد والمشقة ضمن الطاقة البشرية لمنع ما حصل، والقانع هو الراضي، والرضى يُحدث الاطمئنان ويقال: نفس مطمئنة، أي راضية ومستقرة، ومن الرضا والاستقرار تحدث السعادة.

ومن هذا المفهوم كان قول الشاعر:

وقالوا قد زُهيت فقلت كلا ولكنني أعزّي القنوع

ـ والقناعة من الألفاظ المشتركة في اللغة، حيث يمكن استعمالها على الحقيقة اللغوية، وعلى المجاز اللغوي في استعمالات العرب، وعلى الواقع العرفي فيما جرى عليه استعمال قوم من الأقوام، والذي يهمنا هنا هو استعمال الكاتب، حيث فهم القناعة بأنها (الخضوع والذل والمهانة والتسليم بالواقع والاستكانة والاتكالية والقدرية)، وينتج عن ذلك استسلام الإنسان للواقع، وجعل الواقع مصدر التفكير وليس موضع التفكير، كما هو حال الفكر الماركسي المقتبس مع بعض التعديلات الضرورية عن الهيجلية التي سطت على فكر الفيلسوف اليوناني (هيراقليط) الذي جعل الواقع مصدراً للتفكير، عندما اعتبر الفكر بأنه انعكاس للواقع (المادة) على الدماغ، حيث الواقع المنحط يفرز فكراً منحطاً نتيجة هذا الانعكاس الحتمي والصارم، ولذلك قررت النظرية المادية التاريخية، أن الحالة العقلية للمجتمع في كافة أحوالها هي صورة عن الواقع المادي الذي يعيشه المجتمع.

وهذا الفهم أعدم في الحقيقة دور المفكر في أن يكون منتجاً لفكر يرفع من مستوى المجتمع المتخلف، لأن فكر المفكر هو انعكاس للواقع المادي المنحط الذي يعيشه المفكر، فكان الفكر لديهم انعكاساً للمادة على المادة كون الدماغ بدون معلومات مادة، وهذا يستحيل أن ينتج إلا فكراً منحطاً، وهذا إعدام لدور المفكر المجدد، عندما قرر تعريفهم

للفكر أن الواقع المتخلف من شأنه إنتاج مفكرين متخلفين، وهذا إعدام لنظريات النهوض سواء أكانت النهضة على أسس عقلية أم أسس علمية.

ـ إن استعمال الكاتب لعلم المنطق لإظهار فساد مفهوم القناعة، لم يكن استعمالاً سليماً كما هو عند أستاذه سقراط، لأن سقراط اشترط وجود فرضية سليمة، وانطباق الفرضية على حقيقة للوصول إلى نتيجة قطعية، عندما وصل منطقياً إلى فناء الإنسان، كون سقراط إنساناً وهو قطعاً فان، فالإنسان فان حتماً.

ولكن كاتبنا العتيد صاغ سؤاله عن مستقبل فلسطين بطريقة احتمالات مستمدة من منطق الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة، متجاوزاً حدود المنطق عند سقراط، ليصبح أسيراً للواقع كمصدر للتفكير كما هو عند ماركس، فقاس المنطق بتشابه الصفات وليس بانطباق الحقائق، فكان حاله كحال القائل: كل طربوش أحمر والبندورة حمراء، إذن كل طربوش بندورة، حيث وجود النفط بالربع الخالي لا يلزم منطقياً وجوده في كل صحراء، لأن الربع الخالي صحراء، وهذا القياس هو الذي جعل الكاتب من حيث لا يشعر يغلب الواقع الماركسي على الواقع السقراطي، فضاع بين المنطق والفكر في تحديد معنى وأثر القناعة، مما جعل القارئ يرتاب بالنتيجة المنطقية الخاطئة لأفكار الكاتب، وهي كون الأمة غير قادرة واقعياً على تحرير فلسطين وكونها لا تستطيع أن تغير هذا الواقع، فعليها أن تقبل بالأمر الواقع، الذي هو مصدر الافتراضات الاستسلامية التي ذكرها الكاتب.

ـ من هنا يكون مفهوم القناعة عند الكاتب، هو مفهوم واقعي يحبط الإنسان ويجعله يرضى بهذا الواقع المنحط والمتخلف، وينافي مفهوم القناعة عند المسلم الذي يقوم على بذل الجهد والمشقة واستفراغ الواسع بكل ما تستطيع الطاقة البشرية لحصول نتيجة معينة، ولكن إذا لم يكن الحصول على هذه النتيجة (آنياً وظرفياً ومرحلياً) نظراً لعدم توفر الأسباب الحالية، فالرضا بقضاء الله لا يعني الاستكانة عن المحاولة بل والمحاولات لحصول النتائج المرجوة، بل يعني قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ـ وإن عبارة (القناعة كنز لا يفنى) ليست نصاً مقدساً وليست حكماً تشريعياً مستنبطاً من كتب الله وسنة رسوله، ولكنها عبارة عامة شائعة، فلا يجوز تحميلها ما لا

تطبيق وإعطاءها مدلولات فلسفية ومنطقية بعيدة عن استعمالات العرب وعن عقائد الأمة، وهذا ما حضني على الكتابة لإزالة أي شائبة ممكن أن يكون الكاتب تركها في ذهن القارئ.

وأطمئن الكاتب بأن موقف الأمة حيال فلسطين لا يزيد ولا ينقص عن موقف الرجل المقدسي الطاعن بالسن الذي ظهر على الشاشات الفضائية مع مراسل صحفي، عندما سأله عن مستقبل فلسطين، فقال: إن فلسطين أرض وقف للعرب والمسلمين، ولا يمكن التنازل عن شبر منها إلا إذا وقّعت وثيقة التنازل من كل عربي ومسلم في العالم صغيراً أو كبيراً، وسبقه في ذلك السلطان عبد الحميد رحمه الله، عندما رفض التنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين، رافضاً عرض اليهودي (هرتزل) وهذا كلفه زوال حكمه عام 1908، ومن بعده اتفاقية سايكس بيكو التي جزأت الدولة والأمة وقانا الله شر الواقعيين والمعاصرين الجدد، الذين لم يميزوا بين مفهوم آلية القناعة الشرعي واللغوي وبين الخضوع والاستسلام والإذعان والرضا، فخضعوا للواقع هروباً من إعمال النص الذي يحكم الواقع.

دمشق في 30/ 9/ 2009

هل أزمة العالم مالية أم سياسية:

الولايات المتحدة دولة عظمى بكل المقاييس السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهناك من يبالغ ويصفها بدولة القطب الواحد العالمي الذي يتحكم في مصير العالم بإرادة منفردة، فهي بموجب فهمه واحد أحد فرد صمد، والدولة العظمى إما أن تصنع أزمة وتديرها لتحقيق غاية معينة لخدمة أهدافها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، أو تنشأ أزمة إقليمية أو عالمية بدون إرادتها فتعمل على إدارة هذه الأزمة والاستفادة منها لتحقيق مصالحها.

ـ وبدراسة ظروف وأسباب ومسببات الأزمة المالية الحالية سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة، وربطها بمصالح من يسمونهم (الكبار الثمانية الصناعيين + الصين) هذه الدول المتعارضة والمتناقضة في مصالحها غالباً، مع ربطها بالنظام الدولي السياسي الجديد المتوقع ولادته قريباً وبعملية يبدو أنها قيصرية لاستحالة الجمع بين المتناقضات نظراً

للاختلافات الجذرية على قيادة العالم، ولتغير ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث انتصر في هذه الحرب الأمريكان والسوفييت، وخسر آخرون بمن فيهم بريطانيا وفرنسا.

ـ أرى أن هذه الأزمة المالية العالمية وليدة أحداث سياسية هامة تولدت كنتائج عن الحرب العالمية الثانية، حيث فرضت الولايات المتحدة نفسها كزعيمة للعالم الحر الغربي الرأسمالي المضاد للمعسكر الاشتراكي الماركسي بزعامة الاتحاد السوفييتي، وهذا كلفها ميزانيات ضخمة خيالية حتى تمكنت من استنزاف الاقتصاد السوفييتي في معركة سباق التسليح التي وصلت إلى الفضاء، وبلغت ذروتها في مشروع الرئيس ريغان والمسمى (حرب النجوم)، عندما اقتنعت القيادة السوفييتية في عهد غورباتشوف، أنه لا أمل ولا فائدة من سباق التسلح مع الولايات المتحدة، واختارت القيادة السوفييتية الغورباتشوفية أن تصبح من دول السوق الحر، وتتخلى عن سباق التسلح الإستراتيجي، وذلك بتوقيع اتفاقيتي (سالت 1 ـ سالت 2) مع الولايات المتحدة، من خلال سياستها التي تبلورت في إعادة التفكير وإعادة البناء (البيروستراكيا ـ الجلاسنوست).

ـ ولد ذلك كما هو معروف نتائج غير متوقعة من منظور أمريكي، وهو سقوط الاتحاد السوفييتي وتفكيكه، وكان ذلك لمصلحة أوروبا وليس لمصلحة الولايات المتحدة، وسقوط سور برلين عام (1989) وانتهت سياسة القطبين، ودخل العالم كما يقولون بسياسة وإدارة القطب الواحد، وكان ذلك في مصلحة الاتحاد الأوروبي والصين.

ـ بينما كانت الولايات المتحدة تحوز في ذلك الوقت على السلطان والنفوذ في العالم، فضلت الدول الأوروبية الاستحواذ على الثروة والمال في خزائنها، وكذلك الصين واليابان. وعندما أحست الولايات المتحدة بأن أوروبا تركت لها مسؤولية الدفاع عن العالم الحر، من خلال حرب الكوريتين، وفيتنام وكلفتها الباهظة، أقدم الرئيس (نيكسون) في 15/ 8/ 1971 على فصل الدولار عن الذهب للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، حيث كان الدولار المطبوع على الورق بصرف لحامله برصيده من الذهب، ومن ذلك التاريخ أصبح الدولار عملة ورقية مدعومة بنفوذ الولايات المتحدة السياسي والعسكري وقوة اقتصادها القومي فقط.

ـ أسرفت الولايات المتحدة بطبع العملة المفصولة عن الذهب على إثر حرب عام 1973 من جراء ارتفاع أسعار النفط من / 9/ دولار إلى / 39/ دولار، وارتفع الإنتاج

للدول المصدرة للنفط، وكان على الياباني والصيني والأوروبي أن يدفع بالدولار أكثر من أربعة أضعاف الترليونات بدون أي تغطية بسبب التهافت الجبري على الدولارات من كل دول العالم.

ـ انتهت خدمة الرئيس كلينتون عام 2000 والولايات المتحدة في أوج قوتها، ونفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري، ولم يظهر عليها آثار المرض الكامن في صلب نظامها الرأسمالي حيث مليارات الدولارات السائبة في العالم بدون تغطية من الذهب في البنك الفيدرالي المركزي، وبدون قوة كانت تغطي بها عجزها الاقتصادي، عندما ورطتها الدول الأوروبية في أفغانستان والعراق.

ـ انتقلت هذه الدولارات المطبوعة بدون تغطية وبدون قوة اقتصاد حقيقية إلى الدول الصناعية الأخرى وإلى الصين وروسيا وإلى سائر دول العالم، باعتبار الدولار العملة الأولى بالعالم والمدعوم بقوة ونفوذ الولايات المتحدة، وأصبحت الولايات المتحدة أكبر مدين في العالم، قدرت حجم مديونيتها قبل الأزمة الأخيرة بـ (9.5) ترليون دولار وزاد على ذلك (ترليون إضافي)، بعد إفلاس مصرف (ليمان برزرز).

ـ لم يكن أمام الولايات المتحدة إلا إعلان إفلاسها كما فعلت (أيسلندا) أو إدارة الأزمة المالية بشكل سياسي يجعل إفلاس الولايات المتحدة يؤدي إلى إفلاس العالم، لأن / 10.5/ ترليون دولار وهو حجم مديونية الولايات المتحدة، قد تسربت إلى الاقتصاد العالمي وتمركز بشكل رئيس خارج الولايات المتحدة، فهي تساهم في الاقتصاد العالمي، من الشرق إلى الغرب بما في ذلك دول الاتحاد الأوروبي وروسيا والصين واليابان، وحتى دول العالم الثالث.

ـ لم يكن أمام الاتحاد الأوروبي حتى يدفع عن نفسه الإفلاس إلا المساهمة في سد عجز الاقتصاد الأمريكي والبالغ / 10.5/ تريليون دولار، بالتعاون مع الصين وروسيا واليابان وكافة دول العالم، فقرر الاتحاد الأوروبي بشكل مبدئي الدعم بـ / 3.2/ ترليون دولار، واليابان بترليون، والصين بترليون، وسوف ينتقل هذا التطوع الجبري إلى السعودية ودول الخليج وسائر الاقتصاد العالمي، كلاً حسب قدرته والاقتصاد الأمريكي حسب حاجته، حتى يتم تسوية كامل العجز الأمريكي والبالغة / 10.5/ ترليون دولار، وهو يعادل قيمة الدولار المطبوع بدون تغطية وبدون دعم اقتصاد قومي، وإلا تباشر

أمريكا سياسة الفوضى (الخلاقة) والتي هدد بها بوش ورايس لتشمل الشرق الأوسط الواسع المجاور للصين والهند وروسيا وأوروبا وتمتد نيرانه إلى الاقتصاد العالمي. (وأمريكا بعيدة عن هذه الفوضى الخارقة الحارقة)، وتتكرر ظروف الحرب العالمية الثانية، على حدود الدول الكبرى الصناعية بما فيها الصين وروسيا واليابان، التي تجعله جميعه بحاجة إلى الولايات المتحدة، والحروب هي من ضرورات استمرار النظام الرأسمالي.

ـ ولقد كان ذلك واضحاً في خطبة تنصيب الرئيس (أوباما)، حيث أكد على حقيقة سياسة الرئيس (بوش) فيما يخص العالم وخاصة الشرق الأوسط الواسع (الكبير)، عندما ذكر أن الولايات المتحدة ستتعامل مع العالم الإسلامي من خلال المصالح المتبادلة والمنافع المشتركة، متجاهلاً ذكر مصطلح العالم العربي، ومصطلح النزاع العربي الإسرائيلي، كما أكد على هذه النقطة، السيد (إدوارد دجيرجيان) السفير الأمريكي السابق في دمشق، ولبنان وتل أبيب ومساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأوسط الأسبق في كتابه الجديد (الخطر والفرصة)، حيث ذكر بأن بلاده لن تقف أمام شعوب الشرق الأوسط الكبير إذا حسمت أمرها بشكل ديمقراطي ضد حكامها.

والسؤال الذي يرد: أين هذه الترليونات من الدولارات، طالما أنه في التجارة لا يوجد إلا رابح أو خاسر؟.

ذهبت هذه الدولارات إلى جيوب الرأسماليين الكبار في العالم الذين يتحكمون بالقرار السياسي والاقتصادي في مؤتمر (دافوس) وإلى وسطائهم المصرفيين، فكأن العالم بقيادة الولايات المتحدة كجالسين على طاولة القمار يربح فيها القليل ويخسر فيها الكثير والرابح دائماً هو (الكازينو) ووسطاؤه وعملاؤه، وهم الرأسماليون الكبار في واشنطن، وطوكيو، وبكين، والعواصم الأوروبية والمالية الأخرى، عندما باعوا للناس ورقاً لا قيمة له وقبضوا ثمنه، ثم ألزموهم على توزيع الخسائر بينهم كدية القتيل في النظام القبلي العشائري.

إن تصريحات كافة زعماء وحكام العالم السياسيين الكبار تدل على أنهم واعون ومدركون لهذه اللعبة الأمريكية الخطيرة، والتي مفادها أن استقرار العالم السياسي والمالي مربوط بالولايات المتحدة، فإما أن تدفعوا ثمن استقراركم الذي حققته الولايات المتحدة بتضحياتها في كل مكان بالعالم، بينما كنتم تكنزون المال على حساب تضحياتها البشرية

والمالية، وإما أن تعيشوا مع شعوبكم في أزمات سياسية ومالية تفقدكم لذة الحياة التي تعيشون من أجلها والخيار لكم، فإما أن تدفعوا بالرضا الجبري، وتوافق الولايات المتحدة على تعدد الأقطاب في القيادة الدولية، بما في ذلك إدخال ألمانيا والهند وفنزويلا وغيرهم ممن يحوزون مواصفات دولية خاصة إلى نادي الكبار، أو تعم فوضى سياسية واقتصادية في العالم لا يعلم مداها إلا الله والجميع يتحمل النتائج.

2009/1/26

الميكافيلية بين العقلية السياسية والعقلية الذرائعية، مالها وما عليها:

الميكافيلية كلمة مرنة ذات مدلول ضبابي واسع، استعان بها كل من يريد أن يسحق خصومه السياسيين، فهي عند من يتداولها تعني مزيجاً من الوصولية والتسلقية مع حقارة ودناءة الأسلوب، ولقد اختصرها من ترجم فكر ميكافيلي (بأن الغاية تبرر الوسيلة) أي أن من يريد الوصول إلى غاية يعتبرها سامية فلا حرج عليه من استعمال أي وسيلة تمكنه من الوصول إلى هذه الغاية، أي أن من يريد أن يصل إلى غاية يظنها طاهرة بمفهومه فلا بأس عليه أن يخوض في النجاسة ليصل إلى الطهارة.

هذا هو الذي أثار اهتمام الساسة والاقتصاديين وعلماء الاجتماع في فكر ميكافيلي وهذا ما ركز عليه الباحثون، واعتبروا أن ميكافيلي قد أتى بما لم يأت به الأوائل، فهو استحدث فكرة خبيثة منحطة ما سبقه بها أحد، وهو الذي أشاع النذالة في أوساط المفكرين والساسة والقواد. ولولا ميكافيلي لكنا نعيش الآن في طهارة وعفة، وقيم راقية وحياة ملائكية، ولكن الميكافيلية هي التي أفسدتنا، وميكافيلي هو الذي ابتدع هذه البدعة الشنعاء وهو الذي استحدث هذا الفكر المنحط، وهو الذي أثر على موسوليني وهتلر وستالين وصغار المقلدين، ولولا مكيافيلي لكان هؤلاء الناس ملائكة يمشون على الأرض. إلا أنهم أبوا إلا أن يضعوا كتاب ميكافيلي (الأمير) تحت وسادتهم ليعيشوا معه ويقتبسوا من آرائه ويسيروا على خطاه.

والحقيقة التي أراها أن ميكافيلي كان واقعاً مفترى عليه، وهو لا يعدو أن يكون شماعة استخدمها بعض القادة والساسة من أجل تعليق ثيابهم القذرة عليها كلما رغبوا في

ذلك، فميكافيلي لم يكن في يوم من الأيام قائد دولة أو إمارة أي لم يكن الأمير الذي يدير سياسة الدولة، أي لم يكن الرجل المشرع ولا المنفذ. فهو لم يمارس مباشرة الأعمال السياسية داخلياً أو خارجياً في كيان ما، له شكل من أشكال الإمارة، بل كان مفكراً واقعياً، عاش في فلورنسا وهي من أعمال إيطاليا اليوم بين 1469 ـ 1527، ولقد أحس هذا المفكر بقضايا شعبه وأمته ورغب بتكوين دولة واحدة، يجمعها سلطان واحد، ولها قوة تحميها داخلياً من أعمال الثورات والعصيان والتمرد المسلح، وخارجياً من الأعداء المجاورين الذين طمعوا فيها، **ولقد أثرّ عليه هذا الواقع فكان مصدراً لتفكيره وملهماً لأحاسيسه، فاستعمل عقله من خلال غرائزه، فكان فكره فكراً يعتمد على مصدرين أساسيين هما الواقع والغريزة.**

فالميكافيلية بهذا المفهوم إذن فكر طبيعي تلقائي عند كل إنسان لا يقيد نفسه بعقيدة أو قيم أساسية، **بل يكون سلوكه منبثقاً عن الواقع والغرائز**، فميكافيلي كان منظراً استمد آراءه وأفكاره من الواقع المادي الذي عاشه، بما فيه أدواته المعرفية والاستدلالية، فقام بإشباع مظاهر غريزة حب البقاء الفطرية لديه بالأدوات والوسائل المسيطرة في مجتمعه، **فكان فكره مثالاً للفكر الحيواني المتجرد عن أي قيمة اعتبارية فاعلة من خارج الواقع المعلوماتي.** أي كان فكراً (مادياً) لا يعدوا أن يكون انعكاساً للواقع على الدماغ من شأن الواقع المنحط أن يفرز فكراً منحطاً.

إن محبة ميكافيلي لوطنه ولأمته ولشعبه، هي التي سوغت بأن طريق التفكير الحيواني الغريزي (الفطري)، **هو الطريق الوحيد الموصل إلى النهضة للأمم المنكوبة التي ابتليت بالحكام الضعاف المتفرقين الأنانيين**، فكان لابد من طريقة تفكير حيوانية، تسوق الشعوب إلى العز والقوة والوحدة بقيادة حكام همهم الوحيد الوصول إلى وحدة الشعب والأمة بأي وسيلة ممكنة طالما أن الهدف سام، والمصلحة القومية هي المسيطرة على المصالح الفردية، **ولهذا فإن صوفية ميكافيلي الوطنية والقومية ومحبته لأمته هي التي أصابته بعمى القيم والمثل، فأصبح لا يرى إلاّ من خلال الواقع ومن خلال الغرائز**، فكان تفكيره رد فعل على الواقع المزري التي كانت تعيشه إمارات إيطاليا في ذلك الوقت.

وإنصافاً لميكافيلي أضيف، بأن من كتب وشرح أفكار ميكافيلي ركز بصورة أساسية على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، المنسوب إلى ميكافيلي وكأنه لم يبحث إلا هذه الفكرة، علماً أن لميكافيلي **أفكاراً هامة جداً في التكتيك السياسي والإرشاد العملي للقادة تتعلق بطريقة العمل القيادي والأساليب والخطط والوسائل والأدوات، حسب الظروف بما فيها المكان والزمان**، فأدى عدم التفريق عند القادة بين ما هو من الطريقة وما هو من الخطة والأسلوب والأداة، إلى وقوع الكثير من القادة بأخطاء حيوانية قاتلة نزلت بالقادة إلى الدرك الأسفل من الانحطاط وهم يتصورون بأنهم يطبقون أفكار ميكافيلي.

حيث إن بعض الناس لم يفرق بين فكر ميكافيلي والميكافيلية التي علقت كمفهوم في أذهان القادة والمفكرين والشعوب. ولهذا أقول بأن ميكافيلي لم يكن ميكافيلياً بموجب هذا الفهم، لأن ميكافيلي شخص نظَّر بموجب بواعث ودوافع معينة آمن بها، بينما ما سمي بالميكافيلية، هو أسلوب في التفكير زاوله الناس وعزوه إلى ميكافيلي وطبقوه عملياً في حياتهم حسب حاجاتهم ورغباتهم وشهواتهم فكان أسلوباً بالحياة تجاوز واقع ميكافيلي، **بل هو واقع عرفه الناس قبل ميكافيلي وبعده**، ولكن ظلموا ميكافيلي عندما اتهموه بأنه هو مخترعه وهو محدثه وهو مبدعه، فعزوا سلوكهم إلى فكر ميكافيلي، وبالحقيقة هم أساتذة ميكافيلي، وهو لا يعدوا أن يكون تلميذاً كسولاً في مدرستهم التي علمت البشرية قبله وبعده أحط ما يكون من أنواع الفكر والقيادة ونسبته زوراً وبهتاناً إلى ميكافيلي.

ـ ولقد سبق ابن خلدون في مقدمته المدونة ميكافيلي بثلاث قرون، عندما فرق بين الأحكام الشرعية والآداب السلطانية، حيث اعتبره الأستاذ محمد راتب الحلاق (مثالاً للمثقف الذي يوظف ثقافته لخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الأولى، فيلحق نفسه بحاشية أولي الشوكة (الأنية) ويشارك في تثبيت دعائم السلطة القائمة. وبما يميز مغامراته أنها كانت قصيرة النفس وغير منتمية إلى فكرة مركزية أو عصبية محدودة، مما جعله في نهاية المطاف مثار ريبة أمراء عصره جميعاً، يستخدمونه ولا يثقون به)[1].

(1) ملاحظة: الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة.

وما أدل على ذلك ما ذكره الدكتور أحمد أو مليل في كتابه مصادر التنظير عند ابن خلدون، ليدلك على مدى انتهازية ابن خلدون ووصوليته، عندما خرج إلى مفاوضة الخان المغولي (تيمورلنك) قبل دخوله إلى دمشق، ومحاولة ابن خلدون أن يتقرب من السلطان تيمورلنك على حساب دماء أهل دمشق وكان كل الذي يهمه أن يحوز على رضا (تيمورلنك)، حتى أن المؤلف يصف ابن خلدون بقوله: (ولم يأس على سقوط دمشق واستباحتها أساه على ضياع هديته سدى، ولاسيما أساه على بغلته التي أضاعها)[1].

وهذا يؤكد على أن وصولية ميكافيلي كانت شهمة وطاهرة إذا ما قورنت بوصولية ابن خلدون الوضعية، ولو كان أستاذ ابن خلدون (لسان الدين ابن الخطيب) حياً لحزن حزناً عميقاً على تلميذه ابن خلدون الذي لم يحسن حتى استعمال أفكار ابن الخطيب في المكان والزمان المناسب.

ـ إن الطريقة التي عولج بها فكر ميكافيلي جعلت الناس تنفر من السياسة باعتبارها رجس من عمل الشيطان كما وصفها تلميذ اللورد (كرومر) المندوب السامي الإنجليزي في مصر، من أسموه شيخ الإسلام محمد عبده، حتى يترك المسلمون الاهتمام بالسياسة ويتركوا مصالح الشعب والأمة إلى تلاميذ المدارس البريطانية والفرنسية، لذلك لابد لنا من تحديد مفهوم السياسة والسياسي، والحاكم ورجل الدولة، وما يتبع ذلك من ألفاظ ومصطلحات تساعد على إنصاف نيقولا ميكافيلي بكل موضوعية.

ـ السياسة هي من الفعل الثلاثي (ساس) وهو ينم عن الرعاية والعناية والاهتمام من قبل من يسوسُ بمن يُساس، وقد يكون هذا الاهتمام بالحيوان والإنسان في أساس اللغة والاستعمال، لأن كل مخلوق له حقوق وعليه واجبات سواء أكان حيواناً عاقلاً أي (إنساناً) أو حيواناً غير عاقل، وهو (الحيوان) المعروف بالمعنى العرفي الاصطلاحي، وحيث إن الحيوانات غير العاقلة ليس لها مشاكل مع الحكام لأنها لا تنصحهم ولا تأمرهم بالمعروف ولا تنهاهم عن المنكر، ولا تنافسهم على الجاه والسلطة والنفوذ، وكل الذي يهمها إشباع غرائزها وحاجاتها العضوية، وهذه الطلبات مصونة ومحترمة للحيوانات جميعها ولا يمانع منها الحكام

(1) الأستاذ محمد راتب الحلاق، دار الذاكرة للطباعة والنشر.

والمحكومون، طالما أن هذه الحيوانات تقدم المنفعة والفائدة للحيوانات العاقلة، وهم البشر الذي وهبه الله نعمة العقل ليستفيد من كافة المخلوقات والكائنات الحية.

ـ منذ عهد أرسطو ومروراً بكبار وصغار مفكري العصور السياسية الحديثة، لم يخرج مفهوم السياسة **عن الاهتمام بشؤون الناس ورعاية مصالحهم والاهتمام بأمورهم، وعلاقاتهم الداخلية والخارجية**، وهذا يعني أن كل من يعمل بالسياسة وهو السياسي، يفترض أنه هو شخص دفعته محبته للجماعة والمجتمع والدولة إلى ترك (الأنا) الذاتية والمصالح الفردية، دفعته إلى أن يضحي بوقته وماله وأحياناً بنفسه من أجل مصالح الأمة والدولة.

ـ والمفكر بالمعنى الاصطلاحي هو الإنسان المبدع الذي لا يكتفي بنقل المعلومات وحفظها وتكرارها، حتى ولو حفظ علوم الأولين والآخرين، يكون إنساناً ناقلاً (قردِيْ) لا يستطيع أن يؤثر بالمجتمع، لأنه مجموعة كتب متنقلة، سيان إن كانت على الرفوف أو في الكمبيوتر أو في الدماغ البشري، فالمفكر إذن عكس المقلد، لأن المفكر توصل إلى أفكار عن طريق دراسة الواقع وفهمه وإدراكه، ثم تحول هذا الواقع إلى حقيقة في دماغه، عن طريق نقل الواقع إلى الدماغ بواسطة الإحساس، ثم قام بعملية الربط مع المعلومات السابقة عن هذا الواقع، فنتج عن ذلك الفكر الذي تركزت صورته كحقيقة في الدماغ يسعى إلى تحويلها إلى واقع حي في المجتمع وهذا الذي مارسه ميكافيلي من خلال مؤلفاته وخاصة كتابيه الأمير وفن الحرب، ولذلك لا يدخل الأدباء والشعراء في عداوة المفكرين كونهم يتأثرون بالعواطف أكثر من الواقع.

إن الحاكم هو الشخص الذي يتمتع بصلاحية إلزام المحكومين جبراً على التقيد بأحكام الدستور والقوانين، عندما يتبنى الأفكار فتصبح أحكاماً ملزمة على جميع الرعية. فيتقيدوا بها جبراً أو طوعاً. سواء أكان بلداً راقياً أو متخلفاً ومن هنا يختلف الحاكم عن السياسي، الذي عمله الأساسي تبني مصالح الناس ورعاية شؤونهم فكرياً، فالسياسي لا يتمتع بقوة تنفيذية قادرة على إرغام الناس على التقيد بآرائه، بل هو ناصح ومرشد يسعى إلى إقناع الناس بأفكاره وآرائه لتكون أفكاراً للمجتمع يتبناها فتصبح مفاهيم. ومن ثم قناعات ومقاييس لسلوكه، ولكن ليس للسياسي أن يلزم الناس جبراً على الاقتناع بما

يقول وليس له أن يحول أفكاره إلى قوانين قسرية، بل عمل السياسي هو الإقناع بالبرهان والحجة والدليل، والأمة تختار وتعتنق أفكار السياسي وآراءه أو لا تعتنق.

أما رجل الدولة، فهو الشخص القادر على قيادة الدولة داخلياً وخارجياً بحيث يستطيع السيطرة على زمام الأمور في الدولة في وقت الأزمات الحادة، فهو رجل القرارات الصعبة والمواقف الحرجة.

ليس كل مفكر يصلح لأن يكون سياسيا، وليس كل سياسي يصلح لأن يكون حاكماً، وليس كل حاكم رجل دولة. والتاريخ مليء بالحوادث والشواهد على ما أدعي، وهناك فروقات دقيقة تحدد مواصفات كل منهم.

إن كارل ماركس كان مفكراً أصولياً، حدد أصولاً للفهم والإدراك من خلال نظريتيه المادية الديالكتيكية والتاريخية، لكنه حتى موته بقي حبيساً بين المكتبة الملكية البريطانية ومكتبته الخاصة، فلم يستطع النزول إلى الشارع لتبني مصالح الناس ورعاية شؤونهم ومحاولة قيادتهم، فمات منكفياً في بلاد الرأسمالية، بينما لينين وستالين استطاعا تحويل أفكار ماركس إلى واقع حقيقي في الدولة والمجتمع، فكان كل منهما رجل دولة وحاكماً، علماً أنه يقال أن ستالين لم يقرأ كتاب رأس المال لماركس.

العقلية السياسية: تفادياً لأي سوء فهم، فإني أقصد بالعقلية الكيفية التي يجري على أساسها عقل الأشياء فهماً وإدراكاً واستيعاباً، أي الكيفية التي يجري على أساسها اتخاذ القرار.

إن العقلية السياسية: عقلية نشأت وتربت على الاهتمام بشؤون الناس والاهتمام بمصالحها من خلال وجهة نظر معينة عن الحياة، فهي عقلية تعيش من أجل الناس ولهم، عقلية مدبرة تتحسس مشاعر الناس وآمالهم وآلامهم وتحرص على مصالحهم، عقلية تنظر إلى أن الناس كلهم سواء متكافئون لهم حقوق وعليهم واجبات، بغض النظر عن الروابط القبلية والعشائرية والحزبية والدينية، عقلية تسوس الناس بموجب أحكام الدستور الذي كفل لكل من يحمل رعوية الدولة حقوقاً أساسية، من حقه أن يتمتع بها بدون منَّةٍ ولا فضل. عقلية آمنت وأدركت بأن الحكم مسؤولية ورعاية وعناية أمام الله والناس، ورضيت بهذا الامتحان الصعب وهذه المسؤولية التي تؤرق صاحبها آناء الليل وأطراف

النهار، فكل إنسان مسؤول عن نفسه إلاّ الحاكم، فهو مسؤول عن كل كائن حي من الإنسان والحيوان والنبات، وسيحاسب عن أي تقصير في الدنيا من قبل الأمة، وفي الآخرة من قبل الله سبحانه وتعالى، عقلية تؤمن بأن للأمة حقاً في أن تحاسب الحاكم وتزجره فيما إذا خرج عن أحكام الدستور أو أساء التصرف فيما أسند له من مهام نيابة عن الأمة. ولا يجد حرجاً في أن يقبل المحاسبة وبصدر رحب، لأن الأمة تعاقدت معه على هذا الأساس، فإذا خرج عن أحكام العقد وجبت محاسبته وحتى عزله أو اعتزاله، عقلية روضت نفسها على هذه الأسس فاستحقت أن تسمى عقلية سياسية لأنها تسوس الناس وترعى مصالحها بموجب أحكام الدستور.

أما العقلية العسكرية فهي عقلية تنفيذية زاجرة آمرة تنفذ القرارات الصادرة عن القيادة السياسية بدون تلكؤ أو تردد، والإبداع عند العقلية العسكرية يتمثل في تفهمها لمهامها بدقة، وفي إيجاد أحسن السبل لتحويل أوامر السلطة السياسية إلى واقع على الأرض، ولا يجوز للقيادة العسكرية أن تتدخل في الدوافع الحقيقية للسلطة السياسية، ولا يجوز لها أن تسأل عن الغايات والبواعث والأهداف الحقيقية الكامنة وراء القرارات السياسية التي تنفذها **العقلية العسكرية**، وإلا سادت الفوضى وعم الاضطراب من جراء تدخل السلطات العسكرية في القرارات السياسية، **فقد أعفى عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضي الله عنهما من قيادة جند الشام بدون إبداء الأسباب**، وخضع خالد لأمر القيادة السياسية، وكل ما ذكر من أسباب آراء للمؤرخين، لكن لا شك أن هناك أسباباً دعت القيادة السياسة لاتخاذ هذا القرار. **وعلى القيادة العسكرية أن تخضع للقيادة السياسية وأن لا يكون عندها حرج من ذلك.**

حتى الآن لا يعرف كبار القادة **العسكريون** على وجه الدقة في الولايات المتحدة **لماذا بدأت أمريكا حرب فيتنام ولماذا أوقفتها**، وما هي دوافع غزو أمريكا (لجرينادا وبنما)، إن العسكري في الدولة المحترمة محصورة مهامه في مدى مقدرته على تحويل أمر سياسي إلى واقع أم لا، فهو حر بأن يناقش ويجادل في كل أمر فني بحيث يعوق أو يساعد على القيام بالمهام الموكولة إليه، فإذا اتخذت القيادة السياسية قرارها فعلى العسكري أن يوجد أنجع الطرق والأساليب لتحويل هذا القرار إلى واقع ونقله من الخريطة إلى الأرض.

إن هذا لا يعني أن العسكري يستحيل عليه أن يكون صاحب عقلية سياسية، بل **يعني أن العسكري طالما أنه في مهامه العسكرية تسيطر عليه العقلية العسكرية التنفيذية الآمرة والزاجرة**، والتي يتحدد نطاقها الزماني والمكاني حسب الأوامر الصادر له من السياسي.

وما أجمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يحدد به ماهية العقلية السياسية ومواصفاتها بقوله: «والله لو عثرت شاة على الفرات لخشيت أن يسألني الله عنها لم لمْ أعبد لها الطريق)، ويقول المتنبي:

ثلج دموعي بالجفون كأنما جفوني لعيني كل باكيه خدُّ

هذا هو الفرق بين العقلية السياسية والعقلية العسكرية عند الأمم المتحضرة الذي يساعد القارئ والشعوب والأمم لتفهم أهمية العمل السياسي في تقدمها واقتعادها مقعد الصدارة والريادة في العام، عندما **تنبذ الفهم السقيم لما أسموه الفكر الميكافيلي فكان حالها حال من كره العسل لأنه خرئ النحل.**

مركز ثقافي داريا، الأحد 19/ 12/ 2010

الاتجاه المعاكس... هل ماتت اللغة العربية:

الثلاثاء المنصرم في 10/ 8/ 2010 كان موضوع حلقة الاتجاه المعاكس على قناة الجزيرة والذي يقدمه الإعلامي المشهور د. فيصل القاسم، هل ماتت اللغة العربية، أم مازال ممكناً إسعافها قبل أن تحتضر وما هي أدوات ووسائل الإسعاف في حال أمكن.

تعليقاً على ما تقدم أوضح بأن المشاهد يدرك من النقاش بين الدكتور فيصل والمتحاورين، أن المقصود منه ليس الموت الحقيقي بالمعنى اللغوي، بل المقصود الموت بالمعنى المجازي، وهو عدم وجود فاعلية حركية للغة على الصعيد الدولي والعالمي وعلى مستوى الشعوب والأمم وعلاقات النظام الدولي والمنظمات الأممية، بما في ذلك السياسية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية.

ـ بناء على ما تقدم أقول: إن الواقع الحسي منذ وجدت اللغات كوسيلة للتعبير بين الأفراد والشعوب والأمم يدل على أن موت اللغات أو احتضارها ليس له علاقة

بالتراكيب اللغوية من حيث النحو والصرف صعوبة أو سهولة، والتي تجعل قابلية استعمالها المحلي أو الدولي أو الأممي رائجاً، بل حيوية اللغات وفاعليتها مربوطة ربطاً محكماً وكاملاً في قوة ومنزلة ونفوذ الشعوب الناطقة بها ومكانتها الدولية، وحاجة المجتمعات لها، بالقدر الذي ترتبط مصالحهم في استعمالها أو عدمه، فالموضوع حصرياً يتعلق بموت الأمم واحتضارها وليس بموت اللغات. وإن مكانة وسيطرة اللغات مربوطة بنفوذ الدول والعكس صحيح لما يلي:

ـ حتى لا يطول الموضوع لن أناقش موضوع اللغات البائدة وأسبابه، بل سأتكلم في اللغات التي مازالت تعتبر حية والتي لا ينكر وجودها باحث، لأنها على الأقل مازالت موجودة في شعوبها أداة للتعبير وإيصال الأفكار والمعتقدات، ومنها اللغة العربية التي كان موضوع حلقة الاتجاه المعاكس يناقشها بشكل رئيس.

ـ لا يستطيع عاقل موضوعي أن ينكر بأن اللغة الإنجليزية الآن هي لغة المحافل الدولية ولغة التجمعات الاقتصادية ولغة الصالونات الاجتماعية ولغة العلوم والأبحاث. والسؤال: لماذا؟ والجواب ببساطة هو قوة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وحاجة المجتمعات والدول لها، فالجميع مضطرون لمخاطبتها بلغتها التي ورثتها عن الاستعمار البريطاني بعد حروب الاستقلال، وتم تقنينها بالدستور الأمريكي لغة للدولة، حيث صوت المجمع الأمريكي الانتخابي بأغلبية صوت واحد لتكون اللغة الإنجليزية هي لغة الدولة الاتحادية، وليست اللغة الإسبانية، ولو كان العكس لوجدت الآن أن اللغة الإسبانية لغة العالم المسيطرة، ليس لأن إسبانيا صاحبة النفوذ الأول في العالم بل لأن الولايات المتحدة صاحبة النفوذ الأول وهي التي تتكلم الإسبانية كحال بريطانيا الآن.

ـ وكذلك الحال بالنسبة إلى اللغة الفرنسية أيام عز الثورة الفرنسية وسيطرتها في أيام نابليون الأول عندما اجتاحت الجيوش الفرنسية أوروبا، وأصبحت فرنسا المنافسة للإمبراطورية البريطانية على سرقة أموال العالم ومصادر القوة فيه، حيث كانت اللغة الفرنسية لغة رئيسة في الصوالين والمحافل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومصر وبلاد الشام وبلاد المغرب شاهد حسي على ذلك وحتى الآن، حيث كانت لغة (الأكابر) وعلية القوم وأشرافهم من أذناب الفرنسيين، ولو لم يخسر نابليون معركة (واترلو) عندما

اجتمعت عليه كل أوروبا وبتحريض الإنكليز، لكانت اللغة الفرنسية حتى الآن هي لغة المحافل الدولية.

ـ وهذه إسبانيا وكذلك البرتغال كادت لغتهم أن تسيطر على العالم لولا خبث الإنكليز الذي أضعف نفوذهم في بلاد الأمريكيتين، وساعد في إجلائهم عن هذه الأراضي الشاسعة، ومكّن الولايات المتحدة حديثة الاستقلال من طرد جميع المستعمرين الأوروبيين بما فيهم الإنكليز من البلاد، على أن تبقى اللغة الإنكليزية لغة الاتحاد وضاع ماجلان (وكريستوفر كولومبوس) مع ضياع نفوذ الإسبان والبرتغاليين.

ـ أما الألمان واليابانيون فلم يتسنَّ التمكين للغاتهم لأن سيطرتهم العسكرية كانت سيطرة اجتياحية على طريقة المغول، الذين احتلوا بلاداً واسعة وغادروها بسرعة، وهم نفسهم اضطروا لاستعمال لغات البلاد المفتوحة، نظراً لعدم وجود فكرلديهم يمكنهم من المكوث في تلك البلاد والتأثير على ثقافتها كما فعل الإنكليز والفرنسيون.

ـ إن ما ينطبق على هذه اللغات من حيث القوة والاحتضار ينطبق على اللغة العربية قولاً واحداً، حيث كانت اللغة العربية قبل رسالة الإسلام لغة محلية في الجزيرة العربية ولم يصبح لها وجود في الخارج، ولم تكن وسيلة من وسائل التعبير الدولي، إلا بعد أن حملت جموع العرب الفاتحين الإسلام بلغة القرآن الكريم اللغة العربية المبينة، فأصبحت اللغة العربية هي المسيطرة في المحافل الدولية ولغة التخاطب السياسي والدبلوماسي والاقتصادي والاجتماعي، في العهد الأموي والعباسي والعثماني، حتى تمكن المجتمع الدولي على إثر معاهدة (وستفاليا) من كسر شوكة العرب والمسلمين، الذي على أساسها تم تهميش اللغة العربية، على إثر خروج العالم الأوروبي من العصور الوسطى (المظلمة) عندما دبت فيه روح الحيوية والسيطرة والنفوذ، فارتفع شأن لغاتهم مع ارتفاع شأن دولهم، وأجهزت معاهدة (سايكس بيكو) على آخر موطئ قدم للعرب، بعد أن تم احتلال بلادهم مباشرة من الإنكليز والفرنسيين وأصبحت اللغة الإنكليزية هي لغة عصبة الأمم، والأمم المتحدة، ولغة الشركات الكبرى والمصارف وأجهزة الإعلام، على إثر انتصار الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية وكنسها للنفوذ البريطاني والفرنسي في العالم، وهذا هو الذي جعل اللغة العربية لغة متخلفة عن ركب العالم لأنه لم يعد العالم

بحاجة إلى الشعوب والدول التي تتكلم هذه اللغة، وإن مصالح الأفراد والشعوب والأمم أصبحت مرتبطة باللغة الإنجليزية لغة الولايات المتحدة، وصار تعلمها ضرورياً للأفراد والدول وإلا أصبحوا خارج التاريخ وخارج المصالح والمنافع، وأصبح تعليم اللغة الإنجليزية للمتعلم والمثقف العربي وسيلة أساسية للوصول إلى المراكز العليا في القطاع الخاص والعام المحلي والدولي.

وإن أوضح دليل على ما ذكرت تهافت أصحاب المصالح الاقتصادية في العالم على تعلم اللغة الصينية تحسباً للمستقبل الذي يؤكد تنامي النفوذ الصيني في العالم وخاصة آسيا وإفريقيا، والجميع يتذكر اهتمام شعوب العالم باللغة الروسية العسكرية أيام عز الاتحاد السوفياتي وتطوره التكنولوجي وإبداعه في علوم الفضاء.

ـ والذي يؤكد ما أذهب إليه كلمة الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا عام 1993 في جامعة أكسفورد عندما أهاب بالغرب أن لا يستصغر العرب والمسلمين ولا يغتر بحالهم المزري الآن، بل عليه أن لا يغفل عن حالهم السابق عندما كانوا قدوة للعالم فقد قال: «هناك طرق شتى لبناء صرح الفهم والتقدير المتبادل، ولعلنا نستطيع على سبيل المثال أن نبدأ بزيادة عدد المعلمين المسلمين في المدارس البريطانية، أو بتشجيع المعلمين، فالناس في أرجاء المعمورة يريدون تعلم اللغة الإنجليزية ولكننا نحن أبناء الغرب نحتاج إلى أن يعلمنا معلمون مسلمون كيف نتعلم بقلوبنا كما بعقولنا، وإن اقتراب الألف الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي دفعنا إلى استكشاف هذه الصلات وتحفيزها، وآمل ألا تفوت الفرصة السانحة لنا من ذلك، لإعادة اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا برمته، مذكراً الغرب بأن الكثير من السمات واللمسات التي تعتز بها أوروبا الحالية هي مقتبسة من العرب المسلمين كما هي في الدبلوماسية والتجارة الحرة والأتكيت والأزياء والأدوية البديلة والمستشفيات، فكل ذلك وصلنا من هذه البلاد العظيمة، وإن مكتبة قرطبة كانت تحتوي على / 400/ أربعمائة ألف مجلد وكانت أكبر من مكتبات أوروبا مجتمعة، وكأن تشارلز الآن يذكر الغرب، برسالة ملك إنجلترة إلى خليفة المسلمين في الأندلس هشام الثالث كما رواها المؤرخ الإنجليزي (جون دوانبورث) في كتابه ـ العرب عنصر السيادة في القرون الوسطى ـ.

ـ وقد اضطرا إلى كتابتها باللغة العربية نظراً لقوة الدولة والأمة الناطقة باللغة العربية وحاجة بريطانيا والمجتمع الدولي لها، وهي:

النص: وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دويانت) على رأس بعثة من أشراف الإنكليز لتتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من اللواتي سيشرفن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص.

خادمكم المطيع الملك جورج م.س

ـ ما ذنب اللغة العربية إذا كان الدكتور فيصل قد تربى في مدارس وجامعات الغرب والاستشراق، فهذا ليس ذنب اللغة العربية وأهلها إذا كانت ثقافتك وعلومك يا دكتور فيصل بعيدة عن بلادك وعن ثقافة أمتك.

ـ وما ذنب اللغة العربية إذا كان متداخل في حلقة الاتجاه المعاكس من سورية اسمه نضال عيسى قد انسلخ عن ثقافة أمته وانصبغ بالثقافة الغربية وتسطح عقله واستوت تلافيفه، حتى اعتبر أن اللغة العربية ماتت ولن تعود لتستعيد مكانتها التي تستحقها مرة أخرى، ولا أحد شرح هذا الواقع أفضل من الدكتور غازي القصيبي في هذا السياق مخاطباً الأمة العربية والإسلامية، في قصيدته (الشهداء):

أيها القوم نحن متنا فهيا نستمع ما يقول فينا الرثاء
أيها القوم نحن متنا ولكن أنفت أن تضمنا الغبراء

وكأنه يقول بأن اللغة العربية لم تمت ولكن مات الناطقون بها، فأصبحت اللغة مهمشة محلياً ودولياً وعالمياً، عندما أصبح أهلها أموات أحياء، همهم أن يدخلوا التاريخ عن طريق موسوعة غينيس بأكبر صحن تبولة أو قالب (جاتو) بدلاً من أن يدخلوا بأعظم قمر اصطناعي من صنعهم يخترق شيفرات المتكلمين باللغة الإنجليزية وليس العكس، عندها يضطر العالم إلى تعلم اللغة العربية، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يفهمها الغرب البراغماتي.

2010/8/15

تأملات في الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

كتبت هذا الموضوع بناء على دعوة وجهت لي من المؤتمر الدولي للإمام السجاد رضي الله عنه، فيما يخص (الصحيفة السجادية) وأرسلته بتاريخ 26/ 9/ 2010، إلى العنوان المذكور في الأوراق، ولم يصلني أي جواب من إدارة المؤتمر حتى تاريخه.

لقد اخترت عنواناً لبحثي هو تأملات في الصحيفة السجادية، تجنباً لأي حساسية عند السامع أو القارئ ومبتعداً قدر الإمكان عن أي خلاف أو اختلاف، لأني سأعتمد وقائع أساسية لا ينكرها أي مسلم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، منضبطاً فيما أجمع عليه المسلمون من وقائع حدثت في التاريخ الإسلامي، ومبتعداً عن فرعيات تفصيل الأحداث ووقائعها التي كانت سبباً في اختلافهم، باعتبار التاريخ ليس مصدراً تشريعياً عند المسلمين لأنه ليس من الوحي، فقد كتب بقلم محب أو مبغض وكل لا يعتد بروايته، حيث جميع المسلمين على اختلاف مشاربهم اتفقوا على أن مصدر الوحي هو كتاب الله وسنة رسوله، واختلفوا ولا حرج في المصادر الفرعية المنبثقة عنهما، والتحقيق في ذلك صواباً أو خطأ ليس هو موضوع بحثي وعلى الله أتوكل وأقول:

ـ طالما أن مولد الإمام زين العابدين (رض) كان في / 38/ هجري، قد يزيد سنة أو ينقص سنة، فهذا يعني وبحسبة رياضية بسيطة أنه ولد في نهاية خلافة عثمان أو بداية خلافة جده علي (رضي الله عنهم)، وعاش / 57/ سنة، أي أنه عاش لا يقل عن / 50/ سنة في العهد الأموي، واعياً مدركاً لأحداثه، وبالتأكيد عاصر خلافة هشام بن عبد الملك، لما روي في الصحيفة، وفي مصادر كثيرة عن احترام جموع المسلمين له عند تقبيل الحجر الأسود، وقول الشاعر عندما سأل هشام من هذا المبجل أكثر من خليفة المسلمين، فقال: بحق زين العابدين:

هذا ابن خير عباد الله كلهّم ... هذا التقي النقي الصالح العلم

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والكل يعرفه والحل والحرم

ـ مما تقدم يكون من الثوابت القطعية أن الإمام زين العابدين عاصر ما سمي بالفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وما ترتب على ذلك من ردود فعل

وإشكالات شرعية، مازال المسلمون يعانون من نتائجها حتى الآن، فهو بشكل أكيد سمع أو شاهد الأحداث جميعها، أو كان قريب عهد بها وأهمها مقتل عثمان، وبيعة علي واستشهاده وموقعة الجمل، وموقعة صفين، وموقعة الحره، قصف الكعب المشرفة في خلافة عبد الله بن الزبير، على إثر اغتصاب معاوية (للخلافة) لابنه يزيد والاستبداد بالحكم لصالح بني أمية، وقتال علي (رضي) للخوارج، وخروج الحسين (رضي) إلى العراق واستشهاده، وفتوحات الخلافة الأموية. والكثير من المواقع والأحداث المتفق بين الجميع على حدوثها والمختلف على تفاصيلها التي لا تسعفنا في هذا الموضوع.

ـ المفروض أن الصحيفة السجادية كتبها أو أملاها الإمام زين العابدين قبل وفاته في عام 95 هجري أي في عهد الخلافة الأموية، أي قبل عصر تدوين السنة النبوية، وقبل أئمة علماء الحديث جميعاً بما فيهم البخاري ومسلم (رض) وخلافات المحدثين على تواتر أو صحة أو ضعف بعض الأحاديث التي اختلف عليها علماء الحديث، كما أن الصحيفة من الثابت أنها كتبت قبل عصر الفقهاء الخمسة الشافعي والحنفي وجعفر وابن حنبل رضي الله عنهم جميعاً وعن تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

ـ إذن من الثابت أن الصحيفة السجادية كتبت أو أمليت من قبل زين العابدين وهو من آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (المطهرين)، ولا يختلف عليه أحد من المسلمين بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله، وهو التقي النقي الطاهر العالم، ولا يشك أحد بفقهه وورعه وعلمه، ولم يتجرأ مبغض أو حاقد على الطعن في الإمام زين العابدين من حيث الرواية والدراية.

ـ صح عن رسول الله (ﷺ) جد الإمام زين العابدين، قوله الدعاء هو العبادة ـ الدعاء مخ العبادة، وكما هو معلوم في الدين بالضرورة أن المسلم يثاب على دعائه، علماً أن الاستجابة قد تحدث في الدنيا أو لا تحدث، والدعاء خلوة بين العبد وربه، أي في الدعاء يخاطب الداعي ربه في السر وفي الستر، وفي هاتين الحالتين يتعرض الداعي إلى كل ما يخطر بباله من تعسف ظالم أو متجبر أو متكبر، سواء أكان وقوع الظلم على الشخص بذاته أو آل بيته أو على الأمة بمجملها، طالباً من المولى تعالى أن يجبر كسره ويعطيه حقه أو يتجاوز عمن ظلمه، أو يطلب القصاص منه في الدنيا إضافة إلى عقوبة الآخرة وهذا حق المظلوم.

ـ بالتأكيد لم يكن يغيب عن الإمام زين العابدين حقوق آل بيت رسول الله على المسلمين، سواء في الإمامة العظمى والحكم والسلطان أو في الطاعة والإبرار، وفيما إذا وُجد نص موحى على حقهم الحصري في إمامة المسلمين السياسية والقيادية وعصمة أئمتهم، أو كما قال البعض في حقهم الإلهي بالولاية على المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ـ كما لا يمكن أن يخفى على الإمام زين العابدين ما ورد في كتاب الله وما حفظ من سنة رسول الله (ﷺ) من نصوص لمعنى التطهير والطهارة، ووجوب الصلاة على آل بيت رسول الله وحتى الموالاة والمحبة لعلي رضي الله عنه بشكل خاص ولآل بيت رسول الله وعترته بشكل عام، وحديث الغدير وحديث الكساء وكل ما يتعلق بنصوص الوحي الصحيحة بحق آل بيت رسول الله الطاهرين والطيبين ـ إن الدارس المتأمل للصحيفة السجادية ولكل صنف من صنوف أدعيتها والمناسبة التي كان الدعاء بسببها، يلحظ يقيناً أن الإمام زين العابدين لم يخرج فيها عما في القرآن الكريم من الآيات المحكمات وفي السنة النبوية من مرويات ومأثورات عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وفعله وتقريره، فكان يلهث بالدعاء لنفسه وآل بيت رسول الله الطاهرين، وإلى الأمة الإسلامية جميعها متذللاً إلى الله سبحانه وتعالى أن يلهمهم الرشد والسداد والطاعة واجتناب المعاصي والموبقات، والحث على القيام بالمندوبات والقربات والأعمال الصالحات، وأن يكونوا من واصلي الأرحام ويدعو الله أن يؤيد جيوش المسلمين على الثغور بالنصر على الكفار وأن يتجاوز عن المعاصي والآثام وعن الذلل والخطأ وأن يشمل الجميع بالغفران.

ـ لم يذكر ـ رضي الله عنه ـ في أي مقام أو مقال في أدعيته بالصحيفة أنه إمام معصوم وأن آل البيت معصومين عن الوقوع في الخطأ والزلل، ولم يذكر شيئاً عن وجود أئمة من آل البيت بالمعنى السياسي لولاية المسلمين لا عدداً ولا اسماً، بل سأل الله تعالى وكرر ذلك مرات عديدة أن يغفر الله له ولآبائه ولذريته متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى أن يتغمدهم برحمته ومغفرته، بعد أن يبلغوا العلم الذي حفظوه وخزنوه وتعلموه من مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام، مثلهم مثل سائر الصحابة وعلماء المسلمين الذين ما بدلوا وما حرفوا واستقاموا حتى لاقوا وجه ربهم.

ـ ولقد استمر هذا الموضوع في العقائد عند آل بيت رسول الله الطاهرين المطهرين حتى وفاة إمام ما قبل الغيبة الحادي عشر، الحسن العسكري (رض)، ولم يتحدث الإمام جعفر رضي الله عنه ومن سبقه أو لحقه من أئمة آل البيت عن عقائد خاصة في الإمامة والعصمة، وكلهم يعلمون أن الإمام علياً رضي الله عنه قد طعن واستمر على قيد الحياة بعدها يومين وهو مالك لقواه العقلية، وابنه الحسن في جانبه ولم يتعرض (رض) لموضوع أحقية آل البيت في إمامة المسلمين السياسية في الحكم والسلطان لا من قبيل التصريح أو التلميح، إنما جعلها شورى بين المسلمين كما هي في نصوص الوحي، ولم يخطر ذلك على بال أحد من الصحابة رضي الله عنهم سواء أكان من آل البيت أم لا، لأن الجميع كانوا قريبي عهد بوفاة الرسول (ﷺ) وبيعة أبي بكر وعمر وعثمان وكلهم من قريش، وليسوا من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، وأجمع الصحابة كلهم على ذلك، وإجماع الصحابة حجة عند المسلمين لأنه يحتم وجود دليل شرعي معروف من الدين بالضرورة لديهم، فهم الذين نقلوا لنا ديننا بما فيه القرآن الكريم والسنة النبوية، وإذا تطرق الخلل إلى إجماعهم فهذا يعني تطرق الخلل إلى الوحي الذي هو مصدر التشريع، وهذا ما لا يمكن حصوله شرعاً وعقلاً، وإن من شايع علياً رضي الله عنه ليس بسبب كونه من آل البيت، بل كونه يستحق الخلافة لأنه أهل لها، ولاكتمال شروط الانعقاد عنده، فهو رجل دولة وصاحب حكمة وقيادة وتقوى، وشروط أفضليته كونه قرشياً وابن عم رسول الله وصهره، وأول من آمن من الصبيان وتربى في بيته، فاكتملت عنده شروط الانعقاد وشروط الأفضلية، وهو رضي الله عنه يعلم ذلك علم اليقين، ولم يدّع في يوم من الأيام في خلافة كل من سبقوه أنه أحق منهم بالخلافة مستدلاً بنص من الوحي، وهو التقي النقي الجريء الصريح المنزه عن النفاق والتقية والمسايرة واتباع الهوى، مسايرة لأكثرية الناس عندما يكونون على خلاف ما ورد في الوحي وحاشا لله أن يكون غير ذلك.

ـ بدأت بذور هذه الأفكار من حيث حق آل البيت في الإمامة والأئمة وعددهم وعصمتهم سياسية، وليست عقائدية، منذ خروج معاوية نسأل الله له المغفرة على الخليفة والإمام المبايع شرعاً علي رضي الله عنه، واستئثاره مع أهل الشام بالسلطة عنوة وغلبة، فكبر ذلك على المسلمين بعد استشهاد علي رضي الله عنه، وصدمهم واقع مؤلم، وهو كيف يستأثر بالسلطة عنوة وغلبه طليق ابن طليق وكبار الصحابة رضي الله عنهم أحياء ومنهم

آل بيت رسول الله الطاهرين، وكيف يغتصب معاوية السلطة عنوة وقسراً لولده يزيد، حيث في عهده حدثت موقعة الحره وموقعة كربلاء واستشهاد الحسين رضي الله عنه، والكثير من آل بيته، وزاد على ذلك استئثار بني العباس بالسلطة والإمامة على يد أول خلفائهم أبي العباس وتكريس ذلك بمبايعة أبي جعفر المنصور نسأل الله المغفرة لهم جميعاً.

ـ في هذه الظروف بدأ فقهاء السلاطين والموالين والمشايعين يبحثون في أدلة على حق آل البيت الشرعي والنصي في إمامة المسلمين، وكان ذلك بتحريك من بني العباس الذين اغتصبوا الإمامة من آل علي رضي الله عنهم جميعاً خلافاً لما جرى عليه الاتفاق مسبقاً مع دعاة آل البيت الأوائل، فكان لابد من ترجيح نصوص ظنية الثبوت والدلالة على حصر حق الإمامة والحكم في آل بيت رسول الله الطاهرين، ومنهم آل العباس الذين استولوا على الحكم ببيعة لآل علي ثم نقضوها وحولوها إلى جناح بني العباس، ومازال المسلمون في هذه الحلقة المفرغة والخطيرة حتى الآن.

ـ تصدى لهذا الواقع بعض فقهاء من سموا بأهل السنة والجماعة، ليثبتوا صحة خلافة إمامة الأمويين وكذلك من تعاطف مع آل بيت الرسول (ﷺ) تأييداً لحقهم الإلهي في الإمامة الحصرية، متجاوزين بحسن أو سوء نية نصوص الوحي، ومتأثرين بواقع المسلمين الذي سيطر عليه التفكك السياسي واستحلال الدماء والظلم والعسف والطغيان، والعقوق الذي وقع على آل علي من الأمويين والعباسيين، وجميعهم غفلوا عن الوقائع التي عاشها الصحابة بما فيهم آل البيت رضوان الله عليهم، وعن تقواهم وفهمهم لكتاب الله وسنة رسوله، وسيطر على فقهاء أهل السنة في أن المصلحة في طاعة السلطان المتغلب المستبد، ترجح على المفسدة التي ستباح فيها دماء المسلمين، وسيطر على من شايع آل علي: لماذا يكون في الحكم آل العباس بحجة حقهم الإلهي في الإمامة ولا تكون الإمامة لآل علي وهم الأقرب والأطهر، ولو عادوا جميعهم إلى نصوص الوحي من كتاب الله وسنة رسوله، وإلى مواقف الصحابة ومنهم آل بيت رسول الله، قبل عصر تجيير فهم النصوص لصالح تغليب فئة على فئة، ووثقوا بفهم الصحابة وآل بيت رسول الله الأوائل، لكان موقفهم ليس تمحل فهم نصوص الوحي، أوليِّ عنق الدليل ليلائم رغبة أو هوى عند حكام أو سلاطين أو مشايعين.

والخلاصة: إن الحل الوحيد لوحدة المسلمين، هو اعتبار التاريخ للعبر وليس للتشريع، وإن اختلاف المسلمين في الفروع رحمة وفي العقائد مصيبة وكارثة، فليستمر الاختلاف بالفروع ولتستمر المذاهب الإسلامية لأن وجودها بل كثرتها وتعددها ظاهرة صحية وليست مرضية، طالما أنهم يحبون ويحترمون بعضهم ويجلون الآراء المختلفة، وطالما العقيدة واحدة وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، هي مصدر العقائد والتشريع.

وإن خير من عبر عن ذلك الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية، ولو تأسى المسلمون بروح ونصوص ما ورد في الصحيفة لعادوا إلى وحدتهم وقوتهم، وسؤددهم ولكانوا حقاً خير أمة أخرجت للناس.

2010/11/10

التلوث البصري:

كنت أستمع إلى محاضرة حول تلوث البيئة، حين عرّج المحاضر على فكرة استدعت اهتمامي ونالت إعجابي ألا وهي فكرة التلوث البصري.

فمن المألوف أن نسمع عن تلوث بيئة المدينة، بسبب ما ينفث بها من دخان المعامل والسيارات، وما يحرق بقربها من قمامة، وكلنا يعرف خطر تلوث المياه الجوفية والأنهار بمياه المجارير الوسخة، وليس بخافٍ على أحد خطر حرمان المدينة من اللون الأخضر حيث تضيق مساحة الحدائق.

غير أن هناك خطراً على العين والذوق والإحساس بالجمال لا يقل عن خطر تلوث البيئة الذي سبق ذكره، ألا وهو التلوث البصري.

فشركات الإعلان التي تروج للسلع وغيرها من الأمور ذات الربح المادي، راحت تزرع شوارع المدن وجدران البنايات وأسطحها بما هبّ ودبَّ من مناظر مؤذية للعين، من حيث الألوان المتنافرة التي حشيت بها الإعلانات عن السلع، فأنى جالت العيون لا تقع إلا على لوحات احتشدت فيها ألوان الأحمر والأصفر والبنفسجي والأزرق.. إلخ.

ما يخدش الذائقة الجمالية عند من لديهم ذائقة من جهة، ويخلق ذائقة جمالية سيئة من جهة أخرى بل أنها لمبالغة ما بعدها مبالغة في تحويل المدينة إلى صالة إعلانات تعرض لصور السلع: البراد والغسالة والمروحة والكمبيوتر والسيارة والمطعم والطيارة.

وليس هذا فحسب، فإن التلوث البصري يصل ذروته باللغة السوقية الرعاعية، ولا تعود سوقية اللغة إلى عاميتها، بل إلى الأسلوب المبتذل في الخطاب الذي يصل حد استخدام عبارات (الزعران) ولعمري إن التعود على أسلوب مكتوب يخلق قابلية انتشار لغة (قلة الأدب) ولغة عدم الاحترام لأن كتابة العبارات المبتذلة يعطيها قيمة أكبر بكثير من نطقها. تأمل معي واجهات المحال التي تبيع اللباس الداخلي للأنثى، إنها تعرض كل ما يتعلق بالأنثى من لباس داخلي بطريقة إغرائية فجة.

أي تلوث بصري يدعو إلى القرف وأنت تقود سيارتك المتوقفة عند شارات المرور أو بسبب الزحام ثم تلفت نظرك سيارة فارهة من سيارات الأثرياء أو ما شابه ذلك، وسائقها بكامل أناقته ينظف أنفه بإصبعه، إن الاعتياد على رؤية ما هو مقرف، رؤية هذا التلوث البصري يضعف من حساسية المرء تجاه القرف، وإنك لتعجب من التلوث البصري الناتج عن رؤية الأبنية، وكأنه لم يكن هناك مهندس معماري وراء البناء، ففي أكثر أبنية السكن لا ترى لمسة فن معماري، وتتساءل: لماذا نجد المدينة القديمة التي بنيت من دون متخصصين بهندسة العمارة في كامل أناقتها المعمارية، فيما المدينة الجديدة التي خرجت جامعاتها آلاف المعماريين خاوية من البهاء والسحر والجمال.

لن أحدثك أيها القارئ العزيز عن غياب الأناقة في اللباس الخارجي وخاصة عند رجالنا، عن التلوث البصري الناتج عن ذلك الخليط العجيب من ألوان السراويل والقمصان وربطان العنق والأحذية والستر.. إلخ.

جرب أن تتأمل إن كنت من أنصار الأناقة، المارين وبالطريق والحاضرين فعاليات متنوعة، ستدرك من فورك ما نحن فيه من تلوث بصري قاتل.

بقي أن أقول: ما أبشع المدن التي لا نظافة فيها! وما أخطر أن تعتاد العيش في مدن وسخة!.

د. أحمد برقاوي

صحيفة الثورة العدد 14211، تاريخ 4/ 5/ 2010

التلوث الفكري:

ما كتبه د. أحمد برقاوي تحت عنوان (التلوث البصري) في زاوية معاً على الطريق، في صحيفة الثورة بتاريخ 4/ 5/ 2010، العدد 14211، ذكرني هذا التلوث بالتلوث الفكري، الذي هو من اختصاص د. برقاوي فوجد أن أمتنا تعاني من أشد أنواع التلوث، والذي له أثر على حياتها وقيمها وسلوكها وحاضرها، ومستقبلها وسر وجودها، إنه التلوث الفكري.

وأمثلة هذا التلوث كثيرة، ولكن هناك تلوث وحيد لا يختلف عليه أحد في هذه الأمة، إنه التلوث الذي اعترى ما سمي بالقضية الفلسطينية، فكيف بدأ هذا التلوث وإلى أي مرحلة وصل.

ـ سقطت فلسطين في يد اليهود عام 1948، والعالمان العربي والإسلامي حكاماً ومحكومين على شعار واحد، وهو أن فلسطين أرض مغتصبة والحل الوحيد، هو عودة اليهود إلى البلاد التي حضروا منها سلماً أو حرباً.

ـ رفض العرب عام 1949 قرارات الأمم المتحدة التي نصت على تقسيم فلسطين إلى قسمين بين الفلسطينيين ودولة إسرائيل.

ـ استمر هذا الحال حتى عام 1967، حيث اعترف العرب للمرة الأولى فعلياً بوجود دولة اسمها إسرائيل، على شرط إعادة الأراضي المحتلة بعد حرب 1967، بموجب مشروع اللورد البريطاني كاردون رقم / 242/ والصادر عن الأمم المتحدة.

ـ بعد هذا التاريخ انتقل النضال والكفاح العربي من الحل العسكري إلى الحل السلمي، لإيجاد دولة للفلسطينيين مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل.

ـ تم التخلص نهائياً من شعارات الرئيس عبد الناصر (لا صلح لا اعتراف لا مفاوضات) وأصبح شعار مرحلة ما بعد حرب 1973 بالترتيب (مفاوضات، ثم صلح واقعي، ثم اعتراف دستوري).

ـ على إثر مؤتمر القمة العربي في المغرب عام 1982 تم تحميل المسؤولية للفلسطينيين، حيث قرر المؤتمر أن فلسطين للفلسطينيين وأن منظمة التحرير هي المسؤولة الوحيدة عن فلسطين والقرار قرارها فيما تتوصل إليه، والعرب يساعدون منظمة التحرير ولكن القرار لها.

ـ تولت منظمة التحرير بقيادة ياسر عرفات وحاشيته المفاوضات السرية (أوسلو)، وتم الاتفاق مع اليهود عام 1991 على عودة ياسر عرفات وصحبه إلى سجن الضفة الغربية وغزة، كحكام قصّر تحت الوصاية الإجبارية لليهود.

ـ استمرت المفاوضات بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني ونتج عنها تقطيع أواصل ومرافق الضفة الغربية وغزة إلى مناطق وشوارع حسب المخطط A- B فيما هو من أراضي الحكم الذاتي للفلسطينيين، أو خاضع للسيطرة الإسرائيلية.

ـ ضمت القدس الشرقية على القدس الغربية وأصبحت القدس كما يقول اليهود عاصمتهم الأبدية التي وعدهم فيها الله في التوراة، واستمر بناء المستوطنات تحت ظل الحكم الصوري الذاتي للفلسطينيين، وأصبحت المفاوضات على 22٪ من أرض فلسطين التاريخية.

ـ كان نتيجة هذه التطورات أن استطاع اليهود عن طريق التدليس أن يحصروا النزاع الجوهري مع الفلسطينيين والجامعة العربية بالمشكلة الكبرى التي لا مفاوضة عليها، وهي عودة القدس الشرقية إلى الدولة الفلسطينية المتوقع ولادتها.

ـ استطاع اليهود بعد ذلك تحوير موضوع عودة القدس الشرقية للفلسطينيين، إلى القبول بخضوع المناطق المقدسة في القدس الشرقية إلى نوع من الإدارة الدولية التي تضمن حقوق المسلمين والنصارى واليهود في المناطق المقدسة.

ـ عاد الحكام العرب إلى تولي قيادة الحل عن الفلسطينيين بموافقتهم في مؤتمر القمة الأخير في بيروت عام 2002، بعرض مشروع حل سلمي على إسرائيل، مشروط بإنسحاب إسرائيل من كافة الأراضي المحتلة في الخامس من حزيران عام 1967، وإقامة دولة فلسطين المستقلة، مقابل اعتراف الدول العربية بإسرائيل من خلال علاقات دبلوماسية وقنصلية، وحل سلمي في منطقة الشرق الأوسط، وما يترتب عليه من علاقات اقتصادية وحسن جوار، وزاد على ذلك نتنياهو وليبرمان مشترطين اعتراف العالم الإسلامي أيضاً.

ـ وهل هناك أكثر من هذا التلوث الفكري والثقافي الذي اعترى العرب والمسلمين عام 1948 حتى الآن، حيث كان تواجد طالب عربي أو مسلم مع يهودي في فصل دراسي

في العالم الغربي يعتبر من التلوث الثقافي الذي يستحي منه أي عربي قومي أو مسلم بالهوية، ليكون من الموبقات التي تأباها ثقافة الشهامة أو العقيدة.

ـ إنه تلوث فكري وثقافي وحضاري ما كان ليقبل به عمرو بن هشام (أبو جهل)، ولا الزير سالم، وهو القائل عندما عرض عليه السلم بعد أربعين سنة من الحروب ليعفو عن قاتل أخيه كليب فقال:

لا أصلح منا من يصالحهم حتى يصالح ذيب العنز راعيها
وتحلب الشاة من أسنانها لبناً وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

ـ ولقد عبر عن ثقافة ما قبل التلوث فلسطيني مسن (اختيار) ظهر على شاشات الفضائيات أثناء الانتفاضة الثانية، بقوله: إن أرض فلسطين وقف للعالمين العربي والإسلامي وممكن التنازل عنها في حالة واحدة، وهي أن توقع وثيقة التنازل من قبل شعوب العالمين العربي والإسلامي جميعاً، بما فيهم الأطفال والرضع.

وهل عاش أحد من أمتنا مرحلة تلوث ثقافي أكثر من هذا التلوث، وكل يوم جثامين الفلسطينيين محمولة على النعوش أو مقطعة الأوصال، وخيول اليهود على التلفاز تلطم بأجسامها وتطأ بحوافرها نساءً وأطفالاً وشيوخاً وهم يسحقون جيلي الانتفاضة الأولى والثانية، الذين مازالوا يحتفظون بمفاتيح بيوتهم، هذا التلوث يستحق التفكير يا دكتور برقاوي، تلوث حوّل قضية فلسطين من تحرير أرض اغتصبها اليهود قهراً بقوة النظام الدولي وتواطؤ النظام الإقليمي، إلى مفاوضات لإدارة شوارع ومواقع مقدسة تحكمها منظمات وأجهزة لا ترقى إلى مستوى وكلاء مدراء بلديات عند اليهود.

دمشق 9/ 5/ 2010.